حميدة نعنع

دار الآداب

الوطن في العينين

الوطن في العينين

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس

المملكة العربية السعودية

حميدة نعنع

الوطن في العينين

رواية

منشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٨٦

تعرفين انه زمن الحرب .

زمن الموت والحرائق والاوطان البعيدة . زمن التشرد على ارصفة المنفى ... في وجوه المدن الغريبة التي يغسل الضباب وجهها بينما الوطن بعيد . لم يعد بينك وبين الارض الا الغربة ، كلاكما يحدق بوجه صاحبه ، بينما تموت في داخلك كل يوم امراة ويستيقظ في دمك كل يوم طفل .

تعرفين انه زمن الحرب .

الزمن هو الزمن والحرب هي الحرب . يردك الليل الى الواقع المر ، فتحاولين الانتحار بالركض على ارصفة الوحدة ، تسمعين صوتك يغادر حنجرتك الى الفضاء فيرتد اليك عقيما . لقد توقف الحبر عن ان يجذبك ، والصفحات البيضاء لم يعد لها البريق الذي كان يسحـــرك ويخدر في داخلك الرغبة بالبوح .

الى ايـــن ؟

ان المدينة التي تعودت المرور بها ، وانت تحملين في راسك الحلم الكبير بالعودة ، قد اصبحت سجنا كبيرا ، واشجار الزيزفون البرية تنغرز في صدر فجيعتك ثم تختفي تحت وطأة الريح .

لماذا لا يقف الليل عن الثرثرة ؟

لماذا لا ينتحر في ظلمته ويريحك ؟

منذ متى وانت تعشقين ارصفة المقاهي ... وجوه الغرباء ... الدم الذي يغسل ارصفة المنفى ... الخيبة التي تردك الى اعماقك بقهر ... هناك تحاولين ان تعودي امـــراة .

اعرف انه زمن الحرب .

ولكنني اعرف أنه زمن الولادة ايضا ، زمن الشجر الذي التقيته في البلاد البحرية الحارة ، الشجر الذي يلقي بأغصانه الى جسده فتموت في جسده الوحدة ، ثم تموت الاغصان عندما تلتقي بأمها .

قادمة من بلاد كل شيء فيها يولد وكـــل شيء فيها يموت في ولادته ، كل شيء يعيش في موته . قادمة من أرض تمطر السماء ترابها مئة يوم وتمتص شمس السماء مياه الارض في المئات الاخرى .

مَن هناك حيث ما تزال الحرب تزهر على منابـــع الانهـــار .

أعرف انه زمن الحرب

لكنني اعرف انه زمن الهزائم والخيبات والتنازلات . زمن الاسئلة التي تمزق حنجرتي وترتد الى العمـــق دون اجابات .

انه زمن الخوف والانتظار .

باريس ١٩٧٧

اركض اليك والامطار تلفح وجهي ودمي . ارى الثلج يتنزه في وجه الجسور التي تربط « جزيرة سيتي » بالمدينة

العجوز ... اشد عباءتي المغربية الى جسدي وانغرز في صدر العتمة . وعلى احد الشاليهات المطلة على النهر ، المحك تحت ضوء المصباح الذي يلفه الضباب بدوائر دخانية اشبه بموسيقى غجرية آتية من وديان الفرح ... اقترب منـــك .

ـــ لقد تأخرت . كلما هممت بمغادرة مكتبى ، فاجأني المدير بعمل له طابع الاستعجال . لقد افهمته اكثر من مرة ان الساعة السادسة تعني بالنسبة لي الحرية وارتباطات اخـــرى .

واضيف ضاحكة : ـــ عربي ، ومن الصعب ان يدرك قيمة الزمـــن !

تجيبني ضاحكا :

ـــ هذا خير لكم ، ماذا فعلنا بالزمن ـــ ماذا فعـــل بنا الزمن ؟ اشعلنا ثلاث حروب عالمية ... وحرائق كثيرة في بقاع الارض .

وتمد يدك الى شعري المبلل بالمطر ... تمســـح راسي ... تحني عنقـــي اليك محاولا حمايتـــي بمعطفك الجلدي ... نسير باتجاه ساحة « دوفين » . اتوقف على رصيف « ديزورفيفر » ، مقابل قصر العدالة ، وارفع عيني اليك . يمنعني المطر من اختراق الظلمة . يبدو لي وجهك خلف المطر والريح كوجه ربان سفينة امضى رحلة طويلة دون ان يقف في مرفأ ... اقول لك :

ـــ حربان عالميتان ونحـــن نعيش صراعا لـــن يؤدي الا الى اليأس . ليتها تشتعل مرة اخرى لنتمكن من تحديد مواقعنـــا !

المح الغضب على جبينك ... تمر تعابير كثيرة على

محياك عجزت دائما عن فهم معناها . تنحني علي قليلا ... تحاول ان تربت على كتفي :

ـــ كفي عن حماقاتك وأمانيك المجنونة !

اتكلم عن الحرب واتجه الى ماضيك ، أتكلم عن وطني واتجه الى ماضي ... الى حاضري !. ارى خرائط العالم العربي وقد تغيرت اشكالها . ضـــاقت مدن واتســـعت اخرى ، سميت اراض بغير اسمائها ، وحتـــى البطاقات الشخصية اتخذت لها الوانا اخرى .

في مدخل البناء حيث تسكن ، ننظر معا ، وفي وقت واحد ، الى وجه الطباخ الجزائري في المطعم المجاور وهو يردد إغنية لم يغيرها منذ زمـــن بعيد . اتذكر الماضـــي بجراحه ، واحلم براس قادر على النسيان ... احاول ان اكون معك في صدر اللحظة واتذكر اننا معا لكي ننسى .

نتسلق الدرجات الاولى للسلم الخشبي المؤدي الـــى بيتك ، أستند اليك محاولة نسيان وجه الطباخ الجزائري في المطعم المجاور ... نسمع وقع اقدامنا على الخشب العتيق . عند الفسحة الصغيرة في الطابق الاول نقرأ معا اسم احدى ممثلات فرنسا الشهيرات . ابتسم مرددة المقطع الاول من الاســـم ... اتوقف متجهة اليك :

ـــ فرانك ، اليست ...

لا تدعني اتم جملتي :

ـــ قلت لك كفي عن ترديد حماقاتك ، انها فرنسية وليس الا هذا .

موجة غضب تجتاحني ، فأصر على اتمام جملتي . تنظر الي بشيء من التوسل وكأني افقأ في داخلك جراحا

قديمة ، لكنني عنيدة وقاسية في لحظات الاصرار . اشعر ان العالم ينبثق من داخلي ويتوزع على خيوط النور في الوقت الذي أشاء . هذا ما منحني لفترة طويلة احساسا بالتفرد يقترب من النرجسية المطلقة في لحظات خطرة من عمري ... انتظر قليلا حتى نقطع بّاب الشقة التي قرأنا الاسم عليها ... تنعطف الى الطابق الثاني .. أستند الى الجدار المقابل واردد :

ـــ انها يهودية ، اليس كذلك ؟

يعجز رأسك عن تحمل « المساطر » الفكرية التي القي بها دائما ... يضيق ما بين حاجبيك وتسند كفك الى كتفي:

ـــ العالم مقسوم بالنسبة لك الى عالمين : يهودي وعربي . ألا يوجد عالم ثالث بينهما ؟

اصمت ، اقول في داخلي لا ... لو عشت الجرح مثلي لقلت : لا .

يصلنا « السين » من الخارج ، عبر نافذة السلم مختلطا بصوت المطر ... لا قنابل ... لا دم لا عويل ... اف كم كانت ميتة باريس !

في بيتك ، اخلع عباءتي عند المدخل . امد يدي الى منشفة معلقة على الجدار الف بها جدائل شعري الطويل واعتصر حبات المطر .

ـــ وكلما سألتك : ماذا تفعلين في باريس ، تضحكين . تروين لي حكايا عن دراستك وعملك وزوجك . ولكن لماذا اخترت باريس ؟

تسألني وانت تلقي بنفسك على مقعد في الشرفة المطلة على السين .

ـــ قلت لك كل شيء . لقد جئت الى هنا بصحبة زوجي وبدأت دراستي بعد ذلك . عندما افترقنا آخترت الاستمرار ، بانتظار العودة .

ـــ هل أنت مشدودة الى وطنك ؟

ـــ كثيرا .

ـــ ماذا لك هناك ؟

ـــ ولماذا كنت مشدودا الى فرنسا ؟ لقد قرأت مذكراتك في السجن ، واحسست أن الايام التي قضيتها هناك جعلت منك فرنسيا ممتازا ... ربما فوق العادة !

ينقبض وجهك ، واشعر انك لا تريد ان تتذكر الماضي. تهرب باستمرار من الحديث عن ماضيك . تلك الايام البعيدة لم تعد ملكا لك .

ـــ في السجن ، كنت احلم كثيرا بجزيرة « السيتي » ، وأتذكر اشجار حدائق باريس ، حتى خيل الي انني اعرفها واحدة واحدة .

كان قد مضى على عودتك الى فرنسا عامان ، عدت تائبـــا وراغبا في النسيان . اربعة اعـــوام قضيتها تحت الشمس الحارقة في احد السجون من بلد بعيد . بلد من تلك التي تسمونها في لغتكم « العالم الثالث » .

ـــ لماذا رحلت الى هناك ؟

ـــ هل انت صحفية أم صديقة ؟

ـــ فرانك، لو تتصور كم يدفعني الفضول الى معرفة ماضيك . اتعرف انني قرأتك وانا في الثامنة عشرة مـــن عمري ؟ لقد الهب كتابك حماستي وتحولت بشكل او بآخر الى احدى المدافعات عن آرائك في الثورة .

ـ مجنونة ، كنت لا تزالين ساذجة ...

ـ وماذا تعنـــي ؟

ـ اعني ان ما كتبته في السابق كان مغامرة دفعت ثمنها غاليا ، لكن دعيك من كل هذا . انا لا احب ان اتحدث عن نفسي . لماذا لا تحدثينني عنك ؟

ـ أنت تعرفني جيدا .

واصمت ، اصمت لانني لم اكن صادقة ابدا . فأنت تعرف نادية الطالبة التي جاءتك ذات يـــوم في « الايكول نورمال سوبيريور » لتستمع لآرائك ومحاضراتك عن الثورة، وهناك كانت علاقتنا . شعري الاسود ، ملامحي الفجرية شدتك الي ، بينما كان « الرجل الاسطورة » فيك يشدني ويجعلني ابدا مغامرة لم اكن ادرك كيف ستنتهي .

باريس عام ١٩٧٦

الساعة السادسة ذلك المساء من شهر كانون الثاني.

دخلت الى قاعة المحاضرات في « الايكول نورمال » برفقة صديق صحفي من تلـــك البلاد التي رحلت اليهـــا وناضلت فيها ... جئنا يدفعنا الفضول واليأس لنرى نهاية ثوري محتـــرف .

ـ هل تعرفين ان فرانك سيحاضر هذا المساء فـــي « الايكوك نورمال » ؟. اتساءل اذا كان لديه ما يقوله ؟

قال ذلك الصديق الصحفي وهو يحدثني عنك ، وكنت قد تابعت موجة النقد العنيفة التي وجهت اليك عبر الصحف والاذاعات وداخل الاحزاب السياسية في البلاد التي تركتها،

وفي البلاد التي جئت اليها . كان صديقي ما يزال يعتقد ، ككل الطيبين ، بامكانية ثورة البروليتاريا في اوروبا وفي كل مكان ... يحق لنا ان نحلم ... لقد قالوا عنك كل شيء :

« ولد مدلل لم يستطع ان يستمر في النضال فعاد الى احضان برجوازيته » ...

« لقد استـــردت اوروبا ما صدرت الـــى السوق الثوريـــة » ...

« لقد كان سببا في مقتل عدد كبير من المناضلين » ...

كانت هذه العبارات كلها ترافق الحملة الاخيرة التي اطلقت ضدك في الصحف ، وكنت يومذاك امضي حزينـــة ابحث عن نفسي ... قبل ايام فقط ودعت زوجي الذي قرر ان يختار سلامه هو ، تاركا في جسدي وطنا يحترق . لقد سئم مني ، وانا اعيد سمفونية النسيان واللانسيان على مسمعه كل يوم .

قادمة من الشرق ...

قادمة من ارض تحترق حيث ودعت رفاقا لي ينتظرون لحظة الموت ولا يحلمون بالحياة السهلة . اخترت الهرب الى اوروبا ... اخترت التخمة والسلام والمراة في داخلي . هكذا خيل لي ولهم .

لماذا اجرح نفسي ؟ انني لم اختر ابدا . بل لقد اجبرت على الابتعاد عنهم ... حاولت ان انسى ، لكن الجرح المفتوح في القبلـــة والطائرات والسماء الـــزرقاء واجساد الرجال ، كلها كانت تشدني الى الماضي والمدن التي تلقي بثيابها في النار وتشتعل .

ـــ هل تعرفين أن علاقتنا لا تحكمها العدالة ؟
ـــ لماذا ؟

ـــ انت تعرفين عني كـــل شيء ... تقرأينني ... تفهمين ما اقوله ، بينما لا استطيع ان آقرأ ما تكنبين ... هل ما زلت شاعرة ؟

اضحـــك :

ـــ لماذا لا تتكلم العربية ؟

تتمطى فوق المقعد وتحدق الى السماء :

ـــ هل تعتقدين انني سأكون قادرا على تعلمها ؟

ـــ جـــرب ...

ـــ انني في الاربعين ، وأريد أن اعيش حياة مستقرة . هكذا كنا نلتقي في الامسيات الباردة . لقاء الامسيات الباردة هو الاتصال الحقيقي بين رجل وامراة ، به يكتشفان حاجة جسديهما للدفء وكفيهما للمطر .

واليـــوم ؟

شمس ايلول تنزف مطرا ، وانا وحيدة وانت بعيد ، وقد صحـــوت .

مضى عام على حياتنا معا ... عام مذ تركت بيتك وزوجتك وابنتك وانتقلت لتستقر معي في بيتك الجديد مقابل قصر العدالة حيث بدأنا تجربتنا في الحياة معا .

ـــ فرانك ... يعذبني ان تتألم زوجتك !

ـــ ومن قال لك ذلك ؟ لقد انقضى اربعة عشر عاما على علاقتنا ... ولقد تحولنا الى صديقين .

أتركك في ظلام الشرفة المطلة على السين وانتقـــل

الى الصالة ... المح اكوام صحف ومجلات بلغات مختلفة « نوفيل كريتك » « كازاوف اميركا » « افريك آسي » . لغات كثيرة دون تاريخ ، بينما على الجدران خرائط لقارات العالم كلها ... قارات بعيدة تحدها البحار والصمت . صورة لبحار اسباني عجوز على شاطىء منفي يذكرنـــي بشيخ « همنغواي » او كما قلت لك مرة بلوحة صديقنـــا « سيزير » .

ـــ مجنونة ! ان « سيزير » لا يرسم الا شمس التشيلي وبنات المكسيك بعيونهن الشبيهة بعيون البقر .

لست ادري لماذا كنـــت مصرة وبعناد ان اللوحـــه لـ « سيزير » بالرغم من انك نزعتها من اطارها ذات يوم واطلعتني على تاريخها واسم الفنان البلجيكي « دلفو » الذي رسمها . يومذاك قلت لك ايضا وببساطة :

ـــ لا يهم ، ان وجه البحار يذكرني بعالم « سيزير »، النظرة التي لا يمكن تفسيرها ، وايضا الشمس التي تبدو في اعلاها كقرص بني دون اي شعاع او بريق .

للمرة الاولى كنت ارى شمسا دون شعاع ... لا فرق ... لا اهمية لذلك .

حدثتني عن بلاد تشرق فيها الشمس عمرا وتموت في اشراقها ... قلت لي : « هناك ، كنت اتمنى المطر ... هناك ، وفي الاقبية وتحت التعذيب حيث الدم كان يغســـل جسدي ، تمنيت ان اعود الى فرنسا واشد جسدي الى احد اعمدة باريس ولا افارقها ابدا ... لقد رسمت قبة « البانتيون » في راسي واعدت تخطيط شوارع باريس ... حلمت كثيرا بفنجان قهوة في « السان جرمان » .

تتحدث عن ماضيك كشيء لا يعنيك ، ويدهشني ذلك. ناسيا او متناسيا انك جسدت لفترة طويلة احلام جيل بأكمله .

— لقد صنعوا مني اسطورة ! انني غير قادر على تحملها ...

أخفض عيني حتى لا تلحظ أحمرارهما ، كان البكاء يهاجمني في مثل تلك اللحظات واتساءل لماذا انا معك ؟

اتجه الى الحمام حيث احاول من جديد تحت المياه الحارة ، ان انسى رفاقي واقول لنفسي : الثورة لم تكن كما يجب ... حتى فرانك هجر الثورة ... احاول ان اغسل اقنعتي وابعدها عن جسدي ... أكتم السر الذي عذبني وما زال يعيش في داخلي ... مناضلة قديمة تقاعدت ، تحاول ان تنسى برفقة مناضل قديم نسي أو يحاول ايضا ان ينسى .

قبلك كنت قد تحولت الى امراة عادية ، تأكل ، تنام ، تضاجع رجلا في المساء وتجري وراء عربات المترو في النهار ... أحاول ان اقنع نفسي بتلك الحياة وابحث من خلالها عن النسيان ...

« لا أظن انك نسيت .. صورة هدى الشافعي تلاحقك اينما اتجهت ... عليك أن تعيشي كامرأة ... »

كان زوجي يقول لي ذلك ، وكنت اطرق الى الارض ، وأرى وجوههم وهم يغادرونني الى الموت .

فرانك تذكر !

المساء يظلل ساحة « دوفين » ، وانـت في الزاوية تنتظرني . الليل يرعف ظلمته ، وانا اغدو غربة ونسيانا ... اتجه اليك ... اضع راسي في صدرك واشم رائحة جلدك ... تمسح بيدك على شعري ثم تحوطني بذراعيك ... نسير معا تحت وهج الاضواء المبعثرة في صدر العجوز الام « باريس » ... نمـر بشارع « سانت اونرى » ... نتوقف قليلا امام الواجهات الزجاجية ثم نمضي وكان مـا تعيشه هذه المدينة المتخمة لا يعنينا ...

ـ تعرفين ، سأسافر غدا الى (...) انني مدعو للمشاركة بأعياد الثـورة !

كنت قد نسيت انك جزء من تاريخهم ... نسيت انك ذلك الذي اشعل مدنهم حرائق ذات يوم ... كنت الرجل فقط بالنسبة لي ... الرجل وليس النموذج ... وادمنتك لانك تحاول مثلي ان تنسـاهم .

ـ هل ستغيب طويلا ؟

ـ شهرا على الاقل ، الا تفكرين بالمجيء معي ؟

ـ انت تمزح ، تعرف جيدا انني لا استطيع التحرر من عملي في باريس ... سأنتظرك .

ـ انتظريني ولا تكوني وفية لي .

انظر الى وجهك بدهشة :

ـ فرانك ، لن اكون الا انا .

في تلك الدقيقة ، عبرنا معا ساحـة « الشاتليه » واتجهنا الى بيتك ... عند التقاء رصيف « ديزورفيفر » بجسر « السان ميشيل » ، لمحت احد اصدقائي العرب ،

فجريت دون وعي باتجاهه ... ظللت ترقبني من بعيـــد بفضول مدهش ... هل ظننت ان أوروبا قد أحالتني الى عمود ثلـــج ؟

في اليوم التالي كنا نقف امام حاجز الجمارك في مطار « شارل ديغول » ، ينظر كلانا الى الآخر ويحاول ان يبدو اكثر تماسكا . وسمعتهم يعلنون عن اقلاع الطائرة ... احساس غامض داهمني بأنها ستكون المرة الاخيرة التي نلتقي فيها ... حدقنا في وجوه المسافرين التي تملأ الممرات، وذكرنا ان اللحظة قد حانت لان نفترق ... بحثت عبثا عن شيء اقوله لك قبل الرحيل . لكـــن الكلمات خانتني ... تمتمت بعبارات غامضة وقلت لك : سأنتظرك .

فرانـــك !

مر شهر يا فرانك ولم تهتف لي ، لم ترســـل ببطاقة عليها صورة لمناضلي القارة التي تحتويك (ملاحظة : لقد تحولت وجوههم الى بطاقات يبعثها المسافرون الى ذويهم).

في هذه اللحظة ، مصابيح الجسر التاســـع في جزيرة « سيتي » تشدني اليها ، ارى شبحا على الشاليه القريب من ساحة « دوفين » حيث كنا نلتقي ... اتخيل للحظـــات انه شبحك ... اجري والريح تلاحق صدري واوراقي التي اضمها الى صدري واصرخ بلوعة :

ـــ لماذا لـــم تعد ؟

يسمعني الحارس الليلي فيلتفت الي ويفحصني بشك مشحون بالرغبة ... أحث خطاي عابرة احجار الجسر ، ويعلو من بعيد ، من داخلي ، صوتك : « عليك ان تكونـــي

انت وليس شيئا اخر الا انت » . أن الغربة تجعل منا في أوقات الضعف بشرا غير قادرين على الحلم .

كفـــى !

احبك !... لا أعرف ... الجـــرح فقط هو الذي يقلقني في هذه اللحظة . واتذكر بمرارة انني اعيش زمـــن الحرب ، وان السلام الذي كنت تحكي لي عنه ما هو الا اسطورة صغيرة نحن بحاجة الى تصديقهـــا لنعيش ... اتذكر فجاة انني غير قادرة على العودة الى بيتي ، هناك في شرايين الجـــدران العتيقة وأدت ماضـــي الحاضر ... الماضي الذي عذبني كثيرا وحاول أن يكون حاضرا في كل شيء حولـــي ..

أتذكر في محاولة نسيان مقصود وحاضر في راسي ، انني الان وحيدة وليس في جعبتي اي سلاح غير الجرح .

كنت احدثك عن الجرح ، أقول لك : ان في داخلي طعنة خنجر ، النزيف الدائم والابدي لا يتوقف عن تهديدي بالموت في اية لحظة من لحظات الليل ... الجرح المفتوح في العمق والذي كلما مر الزمن عليـــه ازداد عمقا وازدادت الرغبة في نسيانه قـــوة .

الجرح ، المرأة ، وايضا الوطن المنفي في الراس ، و « أبو مشهور » ، وأنت ، وهذه الرحلات المجنونة في عالم الصمت والاغتـــراب .

الجـــــرح

أشعر هذه اللحظة ان الخنجر ينغرز اكثر في الاحشاء. اسمع هدير دمي في شرايينـــي يختلط بهديـــر « السين » العجوز ... اشعر بالغثيان ... بالرغبة المطلقة بالتوقف

عن الاستمرار في أي شيء ... باعطاء نفسي لحظة صغيرة قبل النهاية لكي استطيع ان احدثك عن الجرح ... اقترب من المقهى المقابل للثساليه الذي كنا نلتقي فيه ، ادلف الى الداخل وألقي بعباءتي الى احد المقاعد ... افرش أوراقي على الطاولة ، وأتنفس رائحة الدفء ... يلمحني وجـــه المرأة التي تعودنا ان نراها في الزاوية وهي تقرأ روايـــة بوليسية لم تغيرها منذ شهور ... ربما تعيد نسج الاحداث في راسها وتتخيل نفسها البطلة الفاعلة وذات العلاقة بما يحدث في الرواية .

مرة ... تذكر ... قلـــت لي وانـــت تشير اليها :

ـــ « مؤلم ان ننتهي برواية واحدة في زاوية مقهى ، نعلق فيها كل متاعب العمر وخيبته ، ثم نبحث عن الكلمات ... عن شيء ما يجدد صلتنا بالعالم » .

نظرت الى وجهها فرأيتك بعد ثلاثين عاما وقد خفت الضجة التي تلفك الان ، ووقفت الصحف عن نشر أخبارك في زاوية مقهى عتيق من مقاهي جزيرة « سيتي » تعيـــد قراءة ما كتبته ثم تحلم بأبطالك . ورود هـــذه الفكرة الى رأسي في تلك اللحظة جعلني ارتعش ، وتذكرت دفعـــة واحدة المدن العربية . الشمس التي لا تخلفنا وحيدين ، الهواء الذي لا يعقد معنا أية معاهدة .

قلت لك مـــرة :

ـــ فرانك ! مرعب ان يشيخ المرء في بلادك . ان الوحدة مسألة لا تطاق هنا .

أجبتنـــي :

ـــ ولكن من المرعب أكثر ان لا يجد الانسان وحدته .

لم يقنعني الجواب ، حكيت لك يومذاك عن امـــي وابي ، عن عشرات السنين من شجارهما الذي كان يصل الى الطلاق ثم يعودان من جديد من اجل تسعة اطفال ألقيا بهم الى الحياة في لحظات حب عابرة .

أتذكر وجهيهما في هذه اللحظة ... احاول أن استنجد بقليل من الحب لاجلهما . اشعر أنني منفية عنهما وان تلك الارض حيث هما اصبحت بعيدة وغريبة .

اين وجهك يا ابي في هذا الليل ؟ أين كفاك اللتان ابتعدتا عني في محاولة لحمايتي ؟ وأنت يا امي اقول انني..

وحدثتك عن الليالي الطويلة في المدينة المطلة علـــى المتوسط ... عن البحر ... عند البحر توقفت طويلا ... قلت لك : ان لمياهه لون الليل ، ولم تصدق .

ـــ للبحر لون واحد ايتها المجنونة ... هو الزرقة !

اقسم لك كطفلة مذنبة تحاول التكفير عن اخطائها : انني رأيت الوانا كثيرة للبحر . ظننت انني قد سكـــرت ، وكنت لم أمر بالكأس الاولى بعد . رويت لي أسطورة عن رجال يتخيلون انفسهم ابطالا في لحظة السكـــر ويرون في الجبال احجار شطرنج صغيرة يمكن لهم تغيير مواقعها .

ـــ لا تعرفين شيئا عن تاريخ الغوليين .

ـــ افضل ان اغفر انتسابك الوقور لهم .

ـــ مجنونة ... الانتساب والوقار لا يحتملان ، قولي لي مثلا : ايمانك المسيحي بهم .

كنت أحاول معك ان امارس صحوي المطلق وانا احكي عن البحر وامي وابي . حاولت ان اعود الى المنابع التي

تشل في داخلي الرغبة بالانتماء المطلق ... عند زاويـــة الشارع المقابل لمقهى « الفلور » ، أسندت راسي الى جدار الكنيسة العتيقة ، وحاولت ان ارسم بعيني صورة لك على الرصيف الحجري . كانـــت باريس مثلها الان في الساعة الاخيرة من الليـــل .

شهر مضى على رحيلك وبدات استفيق ، بدات ادرك انني هنا بشكل مؤقت ، وان هذه البلاد لن تكون ارضي الى الابد ، وسوف أظل احلم بالعودة الى الارض التي تركتها في صبح اغبر واشعة الشمس تلامس جبينها .

شهر مضى على رحيلك وبدات اعرف ان السنـــوات الماضية التي قضيتها هناك لم تكن الا محاولة عبثية للنسيان. حتى يوم عرفتك ، كنت قلعة نسيان ليس الا .. .

اربعة اعوام ، هذا حدي الاعلى ، وما يدفعني الان لان أقذف بنفسي الى الخارج او لان اعيد النظر في حياتي انما هو غريزة البقاء ... علي ان أخاطر بحياتي لانقذها ... قبلك يا فرانك حاولت الاستنجاد بالثقافـــة والرجال وهدير العصور ... حاولـــت الاحتماء بالتوسر وغولدمان وشار ، ثم ادركت أنهم الوجه الاخر لخوفي من الموت ، بل لخوفي من الحياة . قلت لك قبل ان تمضي :

ـــ لماذا لا تعتذر عن الدعوة الموجهة اليك ؟

ـــ اشعر بأنني اشيخ هنا ، اريـــد ان ابدل الجو قليلا . لقد اعتقدت بأنني سأكون انسانا عاديا في وطني ، لا خبيرا ولا مستشاراً ، بل بكل بساطة مواطنا يريد ان يعيش .

ـ ولكن كتب عليك ان تلعب هذا الدور ، فأنت الخبير والمستشار في ارضك ولن تكون المواطن العادي ابدا .

وسألتني يومذاك :

ـ وانـت ؟

ـ انا ؟.. كنت انسانة تبحث عـن دمها هناك ، ونسيت البحث عن دمي هنا ... تقاعدت في عالم رجل ، وها انذا اعود من جديد الى العالم لابحث عن مجتمع اكثر عدالـة .

ـ تتكلمين كثيرا عن الديمقراطية ، فهل يمكن لها ان تنجح في بلادكـم ؟

اطرقت برأسي الى اسفلت الشـارع وتذكـرت ان المرأة العربية ستظل لفترة طويلة تحمل رأس زوجها واولادها على كفهـا باحثة عن الثأر :

ـ قضية في غاية التعقيد ، لا اظن ان هناك من حل غير الثـورة .

ـ ماذا تعنين بالثورة ؟

ـ تلك التي تكلمت عنها في بداية حياتـك : تفجير حرائق في امكنة متفرقة من العالـم .

ـ عليك ان تعرفي ان هذا لم يعد ممكنا . انظري الى خارطة العالم تستطيعي ان نحكمي . لقد حلمت كثـيرا! وأدركت فيما بعد ان البشرية قد تعيش ويمكن لها ان تموت من احلامها .

كنا نعبر شـارع بونييه باتجاه المدينـة الجامعية ، وفجأة قررنا ان نغير اتجاهنا ونخرج من باريس لان احساسا

بالاختناق كان يهاجمنـــا ... وهكذا اتجهنا الـــى بيتك في الضواحي عابرين سهول النورماندي الخضراء ، بينما النهار يلملم اخر خيوطـــه .

اقتربنا من « انفلور » ، كان المانش في اسفل الهضبة التي نتسلقها يبدو غارقا في عتمة بداية المساء ، والقوارب الشراعية قد توقفت عن رحلاتها اليومية ... رائحة عطرية لذلك الليل تتغلغل في فضاء السيارة ، يداك قد بدأتا تتراخيان على المقود . ملت برأســـي على كتفك وشعـــرت لدقائق بالراحة . سمعت صوتك آتيا من بعيد ، ورنـــة اختناق تجعله اشبه بأجراس الكنائس في لحظات الموت .

(جاءني مدير السجن في المساء وطلب مني ان احضر اشيائي ، فقد تقرر نقلي الى سجن اخر . كان قد مضى علي عامان في ذلك السجن ... كنت اشغل حجرة منفردة. ممنوع علي الاختـــلاط بالسجناء الاخريـــن ... النزهات الاجبارية الى الاقبية الفيت منذ وقت طويل ، وبدأ جسدي يستعيد حيويته بعد أن اوقفوا تسليتهم به ... قلـــت لنفسي : لا بد ان اعدم . كلما كنت انقل من سجن الـــى سجن ، أمر بمكتب رئيس المخابرات العامة ومساعديه من الضباط الاميركيين حيث تبدأ اسْطوانة التحقيق معي من جديد . كيف دخلت الى البلاد ؟ وبمن التقيت ؟ اسم الذين كانوا معك يوم حوصرت العاصمة . كانت اجاباتي تسجل من جديد في كل مرة ... ولم ينفع توسط السفارة الفرنسية ولا الحملة التي قامت لانقاذي ... كان قرار الادانة قد صدر . السجن مدى الحياة ، وبدأت اعي بين الجدران الاربعة صلاحية العالم الخارجي ، لذة النزهات الصباحية على رصيف « ديزور فيفر » ، وجه صديقتي المليء بالاسى .

وصوت « آبيل » المربي الحازم . كنت لا اريد ان اتعفن بين جدران السجون بل اتمنـــى آن اعيش مرة اخرى لاراهم جميعـــا .

« وجه حارسي الذي تعودته بدا لي في ظلمة المـــر شيئا عزيزا اجبر على تركه ، وكنا في الايام الاخيرة قـــد تآلفنا . كانت مرحلة الانفتاح على القوى التقدمية في الخارج من قبل ضباط النظام العسكري الجديد قد جعلت امكانية الاتصال بالبشر اسهل من قبل ... كنت قد تعودت وجـــه حارسي ... ووجـــه جلادي ايضا ... جـــدران غرفتي وخشب طاولتي الملوث ببقع الحبر . كان الحارس يحدثني كل يوم عن موجة من الجفاف تجتاح البلاد ، تلك الموجـــة التي جعلت الحياة صعبة ووضعت الاقتصاد في ازمة ، ومن وقت لاخر كنت انعم ببعض الصحف المحليـــة التي ينجح بتهريبها لي ، وتألمـــت كثيرا لتوديع هـــذه النعم وتغيـــير الجلادين .

قال لي الحارس وهو يساعدني على وضع كتبي في كيس :

ـــ اتمنى لك الحرية يا سيد فرانك ، لقد تعبت من غير شـــك .

بعد رحلة ساعات في سيارة جيب عسكرية معصوب العينين ، كشفت العصبة عن عيني ووجدت نفســـي في مكتب رئيس المخابرات العامة . انه هو ... لم يتبدل ، لكنه وحيد هذه المرة من دون مساعديه الاميركان .

ـــ سنطلق سراحك هذا اليوم ونتمنى ان لا نرى وجهك ابـــدا .

لم يكن لدي ما اقوله لهم . لقد قررت ان لا اعود الى تلك البلاد ، ولكنني سأكون ضد الفاشية اينما وجدت. تذكرت كلمات « آبيل » وهو يودعني قبل ان اتركهم داخل الغابات المجاورة للعاصمة .

ـــ عد الى بلادك واكتب عنا ، لسنا بحاجة الى مقاتلين .... عد حيث لا يتساءل البشر من انت وماذا تفعل بينهم؟ .. بل حيث يسألون من اية مدينة قدمت وابن من ؟

في عتمة الصبح قطعت شوارع العاصمة في سيارة عسكرية ، بعد أن سمح للملحق العسكري في السفارة الفرنسية بمرافقتي الى المطار والاتفاق معي على الجهة التي افضل السفر اليها . واخترت باريس دون ادنى تردد) .

انظر اليك . العرق يتصبب من جبينك وعيناك تبدوان تحت ضوء المصابيح الصغيرة المنتشرة على حافتي الطريق المؤدي الى « انفلور » زائغتين كبحيرتي زئبق . حاولت ان اكون هادئة ، حنونا ، وانا استمع اليك ... حاولت ان لا اطرح اسئلة اكثر ... السجناء لا يحبون تذكر الماضي . حاولت ان اهرب من تذكر ايامي السابقة في صدر الوطن وتلك الايام الاخرى ما بين موانىء العالم باحثة عن العدالة من اجل شعب يعيش تشرده بأسى .

اوقفت السيارة في مدخل الحديقة وهبطنا معا ، كان راسي قد ترك « المانش » و « انفلور » موطن السرياليين ، وكذلك وجهك ، واتجه الى الشرق وايامه الصعبة . اتجهت

الى ماضيك أنت وحاولت ان افهم رغبتك الحالية في الابتعاد عن مواقع الخطر واختيار الامان .

تحت ضوء المصباح الذي كان يصلنا من الحديقـــة ، استلقيت على ظهري مفترشة ارضية الصالون الخشبية ؛ أحدق بالسقف بينما يصلني البحر من الخارج وقد طغى صوته على صوت الريح التي تصفر في اعمدة النور وتمزق صمت اشجار الدفلى والياسمين البري ... كانت السماء تغترب في صدر العتمة وكان من الصعب علي ان اعـــرف الوقت في تلك اللحظة ... حاولت ان ابحث قليلا في ذاكرتي عن بديل للزمن الحاضر بيننا فلم اقع الا على ايامي في الشرق حيث رفاقي تحت لهيب نيران « عينتاب » التي تحتـــرق ... اختلطت نيران « عينتاب » في ذاكرتي بصوت تكسر الموج على الشاطىء ... كنت وراء طاولة في الزاوية تكتـــب شيئا وتحدق الي بين الفينة والاخرى بعينين زائغتين .

منذ سمعـــي نبأ موت « مـــاري روز » المريع وانا ارتعش واطرح الاسئلة :

لماذا قتلت « ماري روز » ؟ لماذا قتلوها ؟ لقد قتلت منذ ثلاثة أيام في « عينتاب » وهي تعبر حاجـــزا مسلحا ، كانت ماري روز احدى رفيقاتي في اخر عملية قمت بها في أوروبا .

في تلك الساعة اتجهت بالحديث اليك :

ـــ هل سمعت بمقتل « ماري روز » ؟

ـــ اية ماري روز ؟ هناك الكثيرات في العالم .

ـــ ماري روز اللبنانيـــة ـــ السورية ـــ الفلسطينية التي قتلت بالامس في « عينتاب » . أو بالاحرى لسنا نعرف

بعد اذا كانت قد اعدمت أم انها خطفت لتعدم فيما بعد .

ـــ فلسطينية ، أليس كذلك ؟

ـــ انها كما قلت فلسطينية ـــ سورية ـــ لبنانية ومن مدينة « أرم » .

ـــ هل كانت تعمل مع الفلسطينيين ؟

ـــ وهل تظن انها خطفت لانها كانت تغني ؟

ـــ وانت ، هل تعرفينها جيدا ، ما الذي ذكرك بها في هذه الســـاعة ؟

ـــ أعرفها جيدا ، لقد كنا معا .

عندما نطقت عباراتي الاخيرة ، تذكرت فورا انه لا يحق لي ان اتحدث عن حياتي الماضية . لقد قطعت عهدا ان لا اتكلم عن ماضي ... وتفجرت غيمة اسى في راسي حزنا على مقتل ماري روز ... استيقظ حقدي على هذا العالم وتمنيت ان اكون هناك .

ترفع راسك عن كتبك واوراقك وعالمك المليء بالكلمات ... تهرب قليلا من رتابة الحروف ، من رتابة اللحظـة نفسهـا :

ـــ قولي : هـل صحيح مـا يروى عـن القيادات الفلسطينية ؟

ـــ ماذا تريد ان تقـول ؟

ـــ لست ادري : ارتباط بعضها بالانظمة الرجعية ، الثراء ، وقوفها في وجه الوحدة الوطنية ..

تضحك المأساة دما ، ليكن ، بم اجيبك ؟

ـــ ليس لدي رغبة للخوض في هذا الموضوع ، الآن علـــى الاقل .

لا تبحر بعيدا .. رتابة الكلمات واللغة والروايـــات التي تعوض فيها عن الفعل الحقيقي تشدك من جديد ... تعود لاوراقك ... استمر انا في صراعي الداخلي . لماذا لم تسألني عن حياتي انا ؟ لماذا لم يدفعك الشك واليقين لتمزيق أقنعتي والبحث وراء الوجه الذي تحب عن المرآة ـــ الشجرة ؟... تمر اللحظات وانا مستلقية على خشـــب الارض احدق في السماء التي تهاجمنا من النافذة ... ارى حياتي معك محطة مؤقتة في طريق العودة الى الشرق ... أرى دم ماري روز على كتبك وأوراقك ونوافذ غرفة نومك ... دم احمر كالورد يمنـــع التاريخ والفرح مـــن عبور الزمن ، اين انا ؟ ولماذا ؟ أعود قليلا الى الوراء ... الى حياتـــي الماضيـــة .

(من انـــت ؟

الصوت يهاجمني في كل دقيقة فيقلق استســـلامي وراحتي . اتذكر المدينة الساحلية الصغيرة حيث ولدت ... وجه ابي الضابط السابق في الجيش الفرنسي ... ستار الاعتزاز الذي يغطي جبينه وهو يتحدث عن اصله الكردي ، ذلك الستار الذي كان يخنقني ويدفع بي أحيانا الى الصراخ:

ـــ كف عن هذا ، لقد ولدت هنا ولا اعرف لي لغة أخـــرى .

من تلك البقعة حيـــث يعيش البحر بصمت والجبال القريبة تنتظر ، تعلمت رسم العالم مبتدئة بخليج الاسكندرون ... العالم لا يبدأ من مكان اخر ... وفي المدرسة عرفت

ان فلسطين قريبة والرحلة اليها ممكنة على ظهر زورق... وكبرت ... اكتشفت الحقيقة كلها ... الطريق الى فلسطين يمر في صدر المدن العربية . ابي يفخر باجداده الذين حرروا القدس ... يفخر بانتسابه لاخر الامراء الاكراد ... يعيد على مسامعي قصة اصولي النبيلة : «دمك يختلف عن دم الاخرين ، انت اميرة ، ارفعي راسك ولو كنت تطرقين الى الارض ... انت اميرة » ... تلهب الكلمات مخيلتي ، احترق في الكلمات ... اركب في الحلم فرسا واطير فوق زرقة المياه المالحة ... تمتد المياه المالحة الى ما لا نهاية... اقترب من الخط الذي يحدد لقاء البحر بالجزيرة .

« في جزيرة « ارواد » استحم ملك مصر وعشيقته »

يمر الزمن محملا بمطر المدينة البحرية ورائحتها ... يستيقظ العشب واشجار الصنوبر ... التقي في عامي الرابع عشر مدرسة قدمت الينا من « ارم » ، تحدثني عن الشعب والجماهير والحرية ... تحدثني عن العدالة ... تحدثني عن حزب يحاول اعادة رسم المدن العربية، وتسالني ذات يوم :

ـ لماذا لا تنضمين الى الحزب ؟

لم أكن أعي حدود الكلمة بعد ... صغيرة انتميت اليهم ... صغيرة تعلمت ان لي رفاقا على امتداد الخارطة العربية يقاتلون الواقع المر ويحلمون مثلي بالزمن الاتي ... صغيرة عمدت فلسطين حلما ، وعرفت مذابح دير ياسين والقدس ، اي راس كراسي في ذلك الزمن ؟... اي حزن لابنة الرابعة عشرة التي اتذكرها الان عندما تعرف ان السنوات تمضي والزمن لا يتوقف وفلسطين بعيدة ، والحرية التي حلمت بها لم تأت .

أذكر اللقاء الاسبوعي برفيقاتي ، كنا نحول الكلمات الى بقع مضيئة ، ونعيد ترديد الشعارات واكفنا ترتجف . احساس غامض دفع بي لان اخفي أخبار لقاءاتنا الاسبوعية عن أبي وامي ... كنت احيا احساسا مدهشا أمنعه ان يزى الايام العادية ... اقرأ ليلا النشرات السرية ... الخصها ... أحفظها ... وفي عتمة الصبح اخرج الى الطرقات لاوزعها سرا على بيوت الرفاق . تحت المطر .. تحت الثلج والعاصفة ... تحت الصيف والشمس الحارقة كنت انتقل من بيت الى بيت ... من شارع الى شارع وخطر اكتشاف أمري ليس بعيدا . البلاد كلها تعيش فترة مخاض في ظل حكم دكتاتوري ... عيون الشرطة في كل مكان ... وانا اعيش مغامرتي .

تقول لي « المدرسة » : عليك بالحذر ! لو علم أهلك لكانت كارثة . لو علم الشرطة لساقوك الى السجن . لم يكن السجن يرهبني ولا اهلي ... انتظر مع رفاق لي ان يأتي الغد ... من الرابعة عشرة وانا انتظر الغد والغد لم يأت ، كانت رحلتي طويلة عبر مدن الشمال واشعار سليمان العيسى . الموسيقى الملونة لكلماته ... وانا اكتب على أوراقي اشعارا مبكرة ... كلمات ... كلمات عمدها لون الثلج والايام الاتية .

مرة اخرى ابي واسماء اجداده وصورهم على الجدران ... دمه الازرق ... الامراء الذين انجبوه والقوا به الى العالم ... مرة اخرى ابي ، حدثني عن مكانتهم وموطنهم ... حدثني عن الجبال التي يسكنونها .. حدثني عن الاحياء منهم ولم يكن الامر يعنيني . ما كنت أود معرفته: هل يحبون شعر سليمان العيسى وثورة بغداد ؟

اكبر قليلا ... يستدير وجهي وتلمع عيناي على وجه المدينة ... تحدثني امي عن ثري يرغب الزواج بي ... تعدني بالاموال والقصـــور والرحلات التي لا تنتهي الـــى اوروبا . ترسم لي بيتا يتقيأ الدفء ورائحة رجل قد اتخمته الثروة ... اتذكر اخواتي الثلاث وقد انتهى بهن المطاف الى بيوت واسعـــة ، ورجال لهن ملامح ابـــي ... اذكر اخواتي وقد تحولن الى آلات تفريخ جميلة وبضة . ارفض، اقول لا ... اتمسك بدراستي وكتبي طالبة حمايتي من هذا القادم الغريب ... تصرخ امي :

ـــ مالك والدراسة ؟ لن يدعك تعملين ... سيغمرك بالمـــال .

في الامسيات الصيفية اغلق نوافذي ، واكتب علـــى الورق كلمات احاول ان احملها راسي الذي اصبح ثقيلا .. اكتب اشعارا عن الحب وفلسطين وارسم وطنا جديدا ... ارسم حزبا جديدا . اخلق رجالا ... يصبح الحلم اكبـــر من الكلمات ... اسقط في الحلم وانتظر .

ـــ ستكونين شاعرة جيدة

هذا ما رددته « المدرسة » وانا اعرض عليها بعض ما كتبت . قلت ذلك لامي فسخرت مني . قالت :

ـــ الشعر جنون وانت عاقلة وستكونين اما وزوجة لاثرى اثرياء المدينة . انت اميرة وعليك ان تعرفي ذلك .

منذ ذلك اليوم وانـــا اعيش قرفا للحكـــام والسادة والامراء ... ابحث عن الوجه البديل لهم فلا اجده الا في دم الصعاليك الذي هدرته القبائل العربية ... انتمي الى مملكة الصعاليك ، عل دمي يكون مهدورا في يوم ، ارفضهم جميعا : السادة والامراء والحكام .

يأتي الثري الغريب الى البيت ويعدني بالفرح والمال والسعادة ... المح الكلمات تخرج من بطنه وعينيه لتتبدد في سماء الغرفة كذبا « لا احد يملك الغد !! الامـــوال لا تغريني . ولن اعدك بطفل » .

يرحل الثري الغريب وتبكي امـــي حزنا عليه ... يصرخ ابي في وجهي :

ـــ الى اين انت ماضية ؟ ستضعين راسنا في التراب. البنت خلقت للزواج .

تمر العاصفة في البيت الواسع المحاط بالنخيل ... يصرخ اخوتي الذكور : هذه المجنونة ! ستكون فضيحة لنا ... تمتد يد احدهم الى شعري الطويل وتمسك به ... يضرب براسي الحائط حتى يسيل دمي ، ارى دمي احمـــر ونقيا ، لقد كذب ابي دون شك يوم تحدث عن الدم الازرق. اسقط مريضة ، الجسد لا يحتمل الحلم ، انتظر اياما ... شهورا ... سنة ثم ارحل عن البيت . الى « ارم » لاتمام دراستي الجامعية ، لقد فشلوا اخيرا في أن يجعلوا مني آلة تفريخ . اذكر « ارم » والضباب ورائحة الملح علـــى جسدي ، الحزب في راسي ووجوه الرفاق الذين لا اعرفهم لكنني انتمي اليهم . أحول حياتي الى ساعات طويلة من القراءة واتعرف على الماضي والفلسفة والتاريخ . ارى صورتي عبر التاريخ واعيش حياتي اليومية بانتظار الزمن الاتـــي .

رسائل امي محملة بالعتاب واللوم والوصايا . رسائل ابي تطلب الي ان اعود اليهم عذراء واتجنب الرجال ... الزيارات المتفرقة لاخوتي رغبة بالاطمئنان علـــى شرفهم . الجامعة المسكونـــة خيبات وحديث عـــن الثورات والغـــد

والشعـــر ايضـا .

تضعني « ارم » شاعرة تصرخ بحقدها التاريخي ، بالظلم الذي لحق بشعبها ... تضعني أمراة تعشق وتنتظر رجلها . التقي الرفاق في الحزب واحدثهم عن الواقع الذي يحياه الشعب ... اقول لهم : تحولتم الى مجموعة حكام تحلمون بالمناصب والسيارات الفارهـــة ... أقول لهم : الحزب الذي رسمناه في مخيلتنا لا علاقة له بكم ... اقول لهم : لا تتحدثوا عن الشعب ، الشعب بعيد عنكم . يهزأون بي ويمضون ... يصـــدرون البيانات . يملأون جـــدران المدينة اكاذيب ... ارى الهوة تفتح فمها لابتلاعنا . اكتب عن عزلتهم ... عن شكهم بالجماهير ... عن الاخطاء التي ترتكبكل يوم . تنتصب الجدران بيننا ... يضيق بـــي الرفاق واضيق بهم .

ليالي وانا ابحث عن الاحلام التي عشتها في المدينة الساحلية ... عن آبائي المفكرين ... عـــن الشعارات العريضة التي عشت لاجلها واخترقت حجب المطر والضباب والليل والحكم الدكتاتوري . لكنني اكتشف ان الحلم شيء والواقع شيء اخـــر .

تجرني خيبتـــي الى مقاهـــي المثقفين في « آرم » و « عينتاب » . وعبر الدخان واقداح الويســـكي نطلق اصواتا تتحدث عن « الثورة » ... تنتهي الكلمات فـــي الدخان ... يسقط الحلم في اقداحنا . تموت صرخاتنا في ابيات شعر هزيلة ... تنطفىء حرائقنا في اجسادنا وفي نهاية الليـــل نتجه جميعا الـــى الشوارع ونغنـــي اغاني « عراقية » حزينة « فراقك صعب يا هواي » .

تأتي الحرب التي ننتظر ولا ننتظر .

ابحث عن بندقية ... عن نار ... عن سكين اردهم بها عن ابواب « ارم » .

لا بندقية ... لا نار ... لا سكين .

تأتي الهزيمة واجد نفسي على الارصفة والطائرات تلقي بقنابلها على الاطفال والرجال والشوارع وحتى على قلوبنا ... تنغرز السكين في الصدر ... يسيل الدم اسود هذه المرة ، ومرة اخرى يكذب ابي ، فدمي ليس له لون الفـــرح .

عام ١٩٦٧ الهزيمة وانا ممزقة . واحدة من الملايين الذين اثخنت الطعنات اجسادهم . شاعرة ... مثقفـــة مقاهي تعي هزيمتها وتعيش عجزها عن المواجهة : صوت الطائرات يمزق سكينة ايامي ... ارى العالم بأسره وقد تحول الى طائرات تقذف « ارم » بالنار . خرائط العالم كلها تختلط في راسي بصورة الجبهة التـــي سقطت ... بصورة افواج النازحين الجدد . وسميناهم النازحين حرصا على القواعد اللغوية .

اذهب الى رفاقي في الحزب ... اذكرهم ! لا الذكرى تنفع ولا البكاء . الجرح يبتلع كل شيء . تموت الكلمات في الشعر ويموت الشـعـــر في خنادق الخيبـــة ... يسقط الابطال عن جيادهم وتمزق الاقنعة . نبدو جميعا تحـــت نار الهزيمة بوجوهنا الشمعية عاجزين مكبلين . تمر الايام وندفن جرحنا لكننا لا ننسى .

اذكر عام ١٩٦٧ وانا ممزقـــة ... واحدة من ملايين المهزومين ... مثقفة مقاهي الاحتجاج والصراخ الحبيس في الحناجر . تداعينا لعقد مؤتمر للكتاب سميناه خطأ مؤتمر المواجهـــة .

اذكر ذلك جيـــدا .

صالة كليـــة الاداب تضج بكلماتنـــا الفارغة التـــي استهلكتنا واستهلكناها ، اشعارنا التي بدت بعد الحـــرب كوجه عجوز دون أصبغة ... انتماءاتنا السياسية المختلفة صورة لازمة حركة الامة التي فنتمي اليها ... الاضطهـــاد الذي يطبع جبين المناضلين الحقيقيين منـــا ... السجون التي مزقت صدور الكثيرين ولسنوات طويلة ...

نجتمع ونلقي خطبا ، نجتمع ونقرأ شعراً ، نجتمـــع ونشتم الانظمة ... نحدق بوجوه بعضنا البعض فنـــرى الانظمة والسياسيين والقاتل والقتيل ونحن . الحلم يجرنا الى الفراغ ، والادباء الرسميون ادباء الانظمة والفيـــلات والمكاسب لم تتغير بزتهم ولا شعروا بالخجل ... اقرف احيانا واترك صالة المؤتمر ... انطلق الى بار عتيق بجوار الجامعة حيث اسقط فيه بكأس ... الخمر هـــي البطل الوحيد بعد الخامس من حزيـــران ... انتصرت الخمـــر والحشيش وصوت أم كلثوم ، وبدأ العجز في كل شيء .

آه كم فكرت بالمـــوت !

بحثت طويلا عن مسدس انهي به حياتي فلم أجد ... تالوا لي : آن السلاح في المخازن الرسمية وكانـــت يدي قصيرة عن ان تطرق ابوابهم . حتى الموت يحتاج الى اذن رسمي وتصريح حاكـــم ... يحكمون مـــوتنا وحياتنا ... يتثاءبون ملل ايامهم ويعمرون لنا قصورا في الهواء .

عام ١٩٦٧ بعد الحرب .

انتهت الجلسة الصباحية لمؤتمر « المواجهة » ... خرجنا من قاعة الاجتماعات نحمل رؤوسا حولتها الثرثرة الى علب فارغة ... كنا قادرين على اعادة الخطب وترديد

الشعارات ، وقادرين ايضا على استبدال الهزيمة بالنصر.

اطرح اسئلة على الاصدقاء فيجيبونني بأسئلتهم ... ابحث في احضان الرجال منهم عن لحظة امان ، فنرتعد معا بردا وخوفا متخيلين طائرات لا حدود لها تسقط قنابلها وحقدها على أجسادنا . احمل مصباحا كعجوز تبحث في عتمة الليل عن شبابها وابحث عن شيء يسندني . رفضت قراءة الشعر كما رفضت سماعه . تواجدت مع الادباء فحاولنا ان لا تلتقي وجوهنا ... قلت : ربما نعود يوما الى جلودنا ونكتشف ان هناك قرودا تسكنها . جررت نفسي الى غرفتي في الفندق وقررت النوم عله ينسيني المسرحية التي اعيشها ... النوم شرس وعنيد وحر القاهرة يمزق وحدتي ... تضيق الجدران المحيطة بي . أرى الخارطة العربية سجنا . اسمع القيد والسلاسل والمس جسدي ، ما زلت احيا .

يرن الهاتف ... اتجاهله . لا بد وانه احدهم ، احد اولئك الذين أتخموني في الصباح حديثا عن الجماهير ومعركتنا الكبرى ، لكن الهاتف لا يتوقف عن الرنين ، لا بد وأن صاحبه قد قرر ان يكلمني اينما كنت ، اقطع صمت التردد وارفع السماعة ... صوت غريب لم اتعود سماعه :

ـ هل انت نائمة ، لقد حان وقت جلسات المؤتمر .

رغبة بالصراخ هاجمتني في تلك اللحظة . اأقول له اذهب انت ومؤتمرك الى الجحيم، كفانا تهريجا. نحن الشهود والممثلون والمسرح ؟ اأقول له دعونا من مؤتمراتكم وخطبكم واعراسكم ؟

يستمر الصوت :

ـ انا عصام حاتم ، اريد التحدث اليك على انفراد بعيدا عن المؤتمر .

اتذكر عصام حاتم ايام الجامعة بجسده النحيل ووجهه المليء بالاسى ... بعينيه الشاردتين كعيون بشر هبطوا من نجمة ما في السماء وما زالوا يبحثون عنها ... اذكر مناقشاتنا حول ضرورة التغيير في المنطقة ... واذكر اكثر فلسطينية عصام . كان فلسطينيا حتى الجرح . اذكر ايام الشقاء في « ارم » وعصام يأتينا الى المقهى المقابل للمتحف الحربي حاملا اوراقه واشعاره ... يقرأ لنا اخر قصيدة ثم يحدق في وجوهنا ليرى اثرها .

كنا نتشاجر احيانا ونختلف ، فهو ينتمي الى حزب تقدمي يعيش مراحل نضاله السرية ، وأنا انتمي الى حزب تقدمي اخر يعيش أيامه العلنية ... وجه عصام ليلة الخامس من حزيران والهزيمة تمطرنا طعنات وجه لا ينسى.

اقول له على الهاتف انني آتية ... تدفعني لرؤيته احاسيس عجيبة ، وربما التشفي ؟ الرغبة بالتجريح ؟ الرغبة باعادة الحسابات ؟ ولكن كل احاسيسي تتبخر وانا اهبط السلم ، اية رغبة بالتجريح تلك ؟ اي كشف ! لا حزبهم ولا حزبنا ... لا ساستهم ولا ساستنا بقادرين على ان يصنعوا شيئا .

نتعانق كصديقين قديمين ... نتحدث بسرعة عن ماضينا . نقفز الى الحاضر . اسأل عصام :

ـ ماذا جعلت الحياة منك بعد هجر صفوف الدراسة؟

تلمع العينان الغائرتان ويسألني دون مقدمات :

ـ اما زلت في الحزب ؟

ابتسم بمرارة :

ـ تركته او بالاحرى ابعدت . لقد وجد الرفاق انني

غير صالحة للنضال ، الشعر والنضال لا يجتمعان .

واضيف :

— برجوازية صغيرة مثقفة في حزب ثوري .

نبتسم معا ونحدق في وجه احدنا الاخر ... الزمن على وجهينا ... مر الزمن من هنا وترك بصماته على كل شيء .

اسأل عصام :

— وانت ؟

— تركت ، يبدو ان الفروق بين التنظيمات السياسية لا تكاد تذكر .

— هل حضرت جلسات المؤتمر ؟

يشعر الهزء في كلماتي :

— لم تتغيري ابدا ، هذا انت ! لقد حضرت بعضها .

— وقرأت شعرا ؟

— استمعت للقصائد الحماسية .

— لم يخجلوا ، تصور ان يوسف ما زال مصرا على تكسير رؤوسنا بكلماته العريضة .

— ولماذا تريدين ان يخجلوا ؟ قلة الحياء في كل مكان!

غرقنا معا بالصمت ، يا لتلك اللحظات التي نعود

فيها بعد زمن الى اعماق اجسادنا ونرى وجوهنا في المرايا ... انظر الى وجهه ... الى وجهي انا قبل سنوات وكنت ما ازال اتكلم عن الانتصارات ، كنت ما ازال اجيد الخطب وترديد الشعارات ... كنت ما ازال اصدق ما تعلمته في المدرسة .

أقول له : حدثني ، ماذا تفعل الان ، مضى زمن لم نلتق به . هل هجرت « ارم »؟

ـ هجرتها ؟! تعرفين انني غير قادر على هجرها ولكنني اعمل الان مع رفاق لي على خلق تنظيم فلسطيني مسلح . فنحن مقتنعون ان البندقية هي البديل الوحيد لكل هذه الخيبات .

صوت جديد يأتيني في سمفونية الهزيمة ... صوت آت من المستقبل ... من الرفض ... صوت يتخطى تخاذلي واستسلامي لليل والنهار . لقد وجدوا مسدساتهم لا لينتحروا كما كنت اظن بل ليقاتلوا .

طال الحديث بيننا وناقشنا اشياء كثيرة ... القناعات النظرية التي توصلنا اليها ... مهمتنا في تلك المرحلة ، امكانية طرح بديل للتنظيمات السياسية القائمة في الساحة العربية ...

وسألني اذا كنت اوافق على الانضمام اليهم ؟

ارتجف بسرعة ... اوافق ؟ وما هو البديل ؟ استمر في كتابة قصائد القيها في المنتديات يسمعها رجال ملوا احاديث نسائهم ؟.. ترددها نساء على اسماع عشاقهن وينتهون جميعا الى الحديث عن الطقس واخر الازياء وفضائح الجيران ؟ ما هو البديل ؟

اقول لعصام دون تردد : سآتي معكم . هـــل هناك مكان لـــي ؟

ـــ هناك مكان للجميع .

اغادر القاهرة في اليوم التالي متجهة الى « ارم » . اذهب الى مديري في الصحيفة التي اعمل بها والقي فـــي وجهه باستقالتي . ينظر الي ببلاهة ويسالني : اذا كنت حرة ذلك المساء . اغادر مبنى الصحيفة ... اترك خلفي اكوام الكلمات والزملاء الذين يحلمون بزيادة رواتبهم ... اترك خلفي وجهي القديم ، الوجه الذي شوهته الحرب . انطلق في شوارع المدينة امراة اخرى . لقد تحررت مـــن ذل آدميتي ... من ضعفي ... من اسطورة الندب التي وظفتها في دمـــي .

لقد تحـــررت .

اتجه الى المدينة الساحلية حيث امي وابي ، احدث ابي عن رغبتي بالرحيل معهم . يغضب ... يصرخ ... يحطم الاشياء ثم يسقط على مقعده عاجزا ، وانا منكســـة الراس الى الارض لا احرك ساكنا .

تذهبين للموت ؟

اقول له : سأعود ، اقولها واقف لاجمع اشيائي ... يلحق بي الى غرفتي بعد ان عاد اليه الهدوء :

ـــ واذا لم تعودي ؟

ـــ ستكون حياتي قد انتهت كما تنتهي في حادث سيارة تافـــه .

لا يجرؤ على ان يحدثني عن شرفه وعذريتي ...

يظل صامتا ... يتأملني بسكينة . يغلق الباب ويخرج ، اواجه الصمت وصلوات امي الاتية من غرفتها في طـــرف البيت الواسع . منذ سنوات لم تغادر فراشها .. منـــذ سنوات وهي تكتب لي الرسائل وتصلي لاجلي ... منـــذ سنوات وهي تتذكر الزوج الثري الذي فاتني . اتـــركها لصلواتها ... اقبلها وامضي دون ان اذكر لها شيئا عن رحيلـــي .

اودع المدينة والبحر واشجار الزيزفون ، انظر الـــى الوجوه كأنني اراها للمرة الاولى في حياتي ... تبتعد الوجوه التي الفتها وتبتعد السيارة باتجاه ارم . اصلها والليل في اخره ... رطوبة ايلول تغرق الشجر والارصفة وزجـــاج المقاهي ... اتجه الى بيتي ، انظر اليه غارقا بالســـأم والثياب والعطور ... افتح خزانة ملابسي واتناول بعضها ... التي بها في حقيبة صغيرة هي زادي لهذه الرحلة . لاول مرة تكون حقيبته دون عطور ولا اشعار ... دون صحف او آلات تصوير . لاذهب فالتقي الارض هناك ... لالتقي الرجال الذين اكتشفوا الطريق الى القدس .

اصل « حران » . يلقاني عصام علـــى باب مقـــر المنظمة ، يفتح لي ذراعيه . ارمي بنفسي وانتعانق . لقد جمعتنا الحرب من جديد . يصحبني الى دار « ام العبد » مناضلة من مناضلات المنظمة في الخمسين من عمرهـــا . امراة ثورية كاملة ... اذكرها الان وتوحي لي ذكراهـــا بأنبل العواطف . اتذكرها وهي تعمل رسولا للثورة لدى سكان المخيمات في « حران » والمدن الاخرى ... تنتقـــل ما بين الاحياء حاملة معها اخطر الاوراق وجميع نشراتنا . تعود في المساء محملة بالادوية والكساء والمال . كانـــت

« ام العبد » جريئة اكثر من الجراة ، والكثيرات من افراد تنظيمنا النسائي كن يتجنبن مرافقتها في مهمتها ... علمتني ام العبد معنى الصبر ولغة البسطاء . روت لي تاريـــخ الهجرة التي قذفت بهم الى غابة الغربة .

ـــ لا استطيع ان انام يا ام العبد ، احس بالقلق .

ـــ حاولي يا نادية ، سيكون غدك متعبا .

احاول ويهجرني النوم ... يضحك النوم من جفني في ليالي « حران » اعانق الوسادة واطلب من ام العبد ان تحدثني قليلا عن ماضيها ...

(حوصرت القدس وسقطت في ايدي قوات العدو ، كنت في زيارة خالتي قريبا من مسجد عمر ... علمنا ان القسم الاخر قد احتل ، ولم يعد باستطاعتي العودة الـــى هناك فبقيت انتظر وما زلت . في عام ١٩٥٥ عرفت صدفة وعبر رسالة وجهتها امي لنا في الاذاعة ان اخوتي واخواتي قد رحلوا جميعا ... بكت في نهاية الرسالة فاضطر المذيع ان يتمها عنها وختمها بالجملة المعهودة « اطمئنوا وطمنوا ».

ـــ ولماذا اخترت هذه المنظمة ، هل تؤمنين بالماركسية؟

شرحت لي تلك المـــراة البسيطة النظرية الماركسية بجملتين : الفقراء يقاتلون فليس لديهم مـــا يخسرونه ، الاغنياء يخافون على اموالهم ... اخترت هذه المنظمة لانهم يتكلمون باســـم الفقراء .

ولم يكن لدى أم العبد اية فكرة عن العمل السياسي . كانتتبدو بيننا كامراة تحيا حياةمغامرة تروقلها، مقتنعةتماما أن المقاومة الفلسطينية وان اختلفت طروحها فهي في النهاية على هدف تحرير الارض .

— كلهم فلسطينيون يا نادية والهدف واحد .

في صدر أم العبد البسيط النقي القيت همومي واخذت دروسا في الصبر . آتيها تعبة ومرهقة في المساء بعد نهار طويل في المخيم ، فتعمل على تأمين ما يريحني ويساعدني على اعداد النشرات النظرية . اشكو لها الازمات التي تمر بها ، فتفتح لي آفاقا جديدة . اذكر ليلة حوصر رفاقنا في بيت ابراهيم من قبل منظمة فدائية اخرى نتيجة شجار حاد حصل في احدى القواعد . اتيتها راكضة اخبرها بالنبأ . حملت مسدسها وذهبت وحيدة باتجاه بيت ابـــراهيم ... لحقت بها وامسكتها من كتفها :

— ماذا حصل لك يا أم العبد ، انهم مسلحون وعددهم لا يقل عن خمسة عشر رجلا !.

لم تعر صراخي انتباها ومضـــت ... بعد نصـــف ساعة تفرق أعضاء الفريق المسلح دون ان تضطر لاطلاق رصـــاصة واحدة .

حزنت كثيرا وانا أودعها الى معسكرات الشمال ... جاء اليوم الذي افترقنا به وآلمني فراقها . لوحت لي بيدها وغابت في العتمة ... لم اعد اراها بعد ذلك ، الـــى ان جاءتني في البيت الذي احتجزت به بعد عملية جنيف . قبلتني في جبيني واعطتني كيسا من الزعتر الفلسطيني تعرف انني أحبه . عرفت بعد رحيلي الى « عينتاب » ان « أم العبد » قاتلت في ايلول قتالا شجاعا ، وقد وجدوا جثتها على مدخل مكاتبنا مثخنة بالطعنات . لا ادري اين دفنت ، لكنني كلما تذكرتها في عزبتي شعرت بحسد لانني لم اكن الى جانبها).

الان الخامس من ايلول ١٩٧٧ والساعة تشير الى منتصـــف الليل .

ما ازال مشدودة الى مقعدي في المقهى ، يا وجهك البعيد ويا ليالي الغربة ... يا صدرك الذي ضم اشلائي وبقايا هزيمتي وحزني . يا انت ... يا رجـــلا بحثت في جسده عن النسيان ففجر في جراحي ... يا رجلا بحثت في عينيه عن وطن الجأ اليه فأعادني الى مدني . يا فرانك يا غربتي ... يا غربتنا معا . انا وانت ماض يعيش وراسانا ذلك الماضي ... انا وانت صرخات رفاق ضمتهم السجون والمقابر فقضينا ايامنا نبحث عن وسيلة ننسى بها عيونهم في ساعات الوداع الاجباري .

يوم التقينـــا ؟

تذكر يوم لقائنا الاول . قاعة المحاضرات في الجامعة تغص بالطلبة القادمين من العالم الثالث . وانت تتحدث عن فلسطين وأميركا اللاتينية وافريقيا . جئت لاستمـــع اليك ... جئت لاراك بعد ان اعادتك السجون الـــى بلاد الترف والزبـــدة . قال لي الاصـــدقاء : انـــك استسلمت لبرجوازيتك وقنعت بذكرى الرفاق السابقين ... عـــدت الى فرنسا لتكتب روايات عن موتهم واستقبلتك السيدات الجميلات بالعطور بينما صرخت معابدهم باسمك بطلا ...

كانوا بحاجة لاسطورة وخلقوا منك حكاية لهم في بلاد انتهت فيها الاساطير ... حولوك الى ما يشبـــه النجم ، ودفعوا بك الى واجهاتهم صنما يعبدونه .

خبير ثوري ... مستشار لشـــؤون القارة السوداء التي تحترق ...

ولم يدروا انهم يقتلونك ... يدفعون بك الى الزوايا المعتمة حيث تتعفن نسيانا وذكرى .

ارفع راسي في وجهك وانت تشرح تناقضات الثورة في بلادنا ، اقول لك :

ـــ دعك من الثورة الفلسطينية فأنت لا تعرفها ...

تجرحك كلماتي . تحاول ان تقول شيئا ... تموت الكلمات في صدرك . ترى وجوهنا في المزايا تلحق بي الى مقهى مجاور للجامعة .

ـــ من أنـــت ؟

اصمت قليلا ولا اجيبك ... تلح ... ارى في قرارة عينيك رجلا يموت الما . ابتسم قليلا واسالك :

ـــ انسيت ؟ لماذا تحاول النسيان ؟

فنطلق معا في باريس ونضحك من ظلمة الليل ... اراك تعيش ماضيك عذابا ... حاضرك عذابا .. والنسيان هـــدفك .

ـــ انك لا تتحدث كثيرا عن ماضيك ؟

ـــ الماضي ذهب وانتهى ، انا هنا في فرنسا حيـــث ولدت ... اكتب لاحب نفسي ... انجب اطفالا لاعيش بهم ... اناضل ضد برجوازيتي .

واظل صامتة . اعرف جيدا انك تتمزق بين ولائـــك لرفاقك القدماء وسحر برجوازيتك . اعرف جيدا انـــك اخترت الراحة والتنازل ... اعرف جيدا انـــك تحيا بين بيوتك الثلاثة ... ونادرا ما تضحك .

ـ ولكنك تلعب لعبة البـــرجوازية نفسهـــا ، ربما اصبحت بعد أيام وزيرا للثقافة !

ـ اذا نجح اليسـار في فرنسـا . انني لم اخن رفاقي ولكن لكل بلد ظروفه .

اظل صامتة . لماذا اتهمك ؟ لماذا اطعنك بخناجر شكي وضـعفي ؟ انا مثلك قلعة نسيان . انا مثلك ابحث عـــن وسيلة ما ابرر بها هربي وحياتي هنا بعيدا عن « عينتاب ».

فرانك ، لماذا اتذكر كل هذا ؟ الليل في اخره يا فرانك والريح تعصف بالمدينة . وانا هنا في زاوية مقهى ، انتظر خلاصا ما . ارى وجه « ام العبد » على زجاج المقهى ... اسمع صوتها وانا اتـــرك « حران » الـــى معســـكرات التدريـــب .

« نادية ، انت اول مقاتلة ، فعليك المحافظـــة على حياتـــك » .

وبقيت حياتي لتقودني الى التسكع على ارصفة المنفى وانتهت حياتها ... تماما كما بقيت حياتك وانتهـــت حياة رفيقك « المنصف » . كلانا وجه لعملة واحدة ... يا سامي من صمتنا ، ويا تفاهة الايام التي نحيا !

« سأرحل الى معسكرات التدريـــب يا عصام ... سأقاتل » .

يجتمع المجلس العسكـــري ليتخذ قـــراره في قضيـــة التحاقي بالقواعد ... يطول النقاش بينهم . كيف يمكن لامراة ان تعيش وسط مقاتلين ؟ ولكنني اصر بشـــدة ، الامر

الذي جعلهم يوافقون . « ستكون تجربتها عاملا مشجعـا للاخريات . لماذا لا ؟ » هكذا انتهى عصام النقاش وانتقلت لأحيا حياة جديدة . انتقلت الى الخيام والسلاح تاركة ورائي كل تناقضات الاحزاب السياسية وجدلها العقيم ... تاركة ورائي رفاقا لي سابقين تعفنوا في زوايا السجون ، دون ان تجرؤ احزابهم السياسية على أتخاذ موقف ينقلهم الى الساحا تالفعلية للنضال . اقراك كل ليلة واشعل ضميرى بك ... اقرأ رفيقك « المنصف » الذي سقط في وسـط الغابات ... اعيد تاريخ الثورات والرجال الذين صنعوا التاريخ . نمر بالفيتنام وكوبا وبوليفيا. نبحثفيتراثهمعندليل لنا . اشرح لرفاقي خصوصية ثورتنا وصعوباتها . يستفيق النهار على اصواتنا ويمضي ليبحث عن جذور تربطنا الـى الارض .

هل خنقـت الثورة ؟

اليوم الخامس من ايلول عام ١٩٧٧ . « عينتـاب » ليست نهاية العالم، وذاكرة التاريخ تتسع للمدن والشهداء والمشردين . أتنفس حرارة المقهى وأصوات السكـارى . افكر ان الجأ الى احد الاصدقاء فأحكي له شيئا عما يعذب الجسد ويشـل قدرته على المضـي الى اقبية الهـدوء والاستسلام .

الاصدقاء رحلوا عن باريس . فأين انت « يا باهي » لتقوم بمراسيم دفني على طريقتك ؟ أين انت يا « محمد » ايها السفير الحاقد على كل شيء ... اين انتم يا مجموعة الصعاليك المشردين ؟ تعالوا في هذه اللحظة وخلصوني من الذكرى ، والاغتراب ، ووجهه المسافر .

(يستقبلني قائد المعسكر بدهشة واستغراب ...

اتيت الينا اخيرا ؟ لماذا تختارين الخطر والموت ؟.. كنت اظنك في الاربعين ، قبيحة ومعقدة . اضحك ، ارد اليه اسئلته . ما رايك ان نبدأ في تنظيم اعمالنا ؟ على الحدود الجنوبية لبلد عربي قريب من أرض المعركة كان معسكرنا مجموعة مقاتلين تلون الشمس وجوههم ... ينتظرون الليل بفرح ... يتحدثون عن الارض والتحرير والشهادة ... كنا نجتمع في حلقات صغيرة ونتبادل النظر . نستمع الى فرحان يروي ذكرياته عن ايام المخيم ... نقرأ اشعار محمود درويش وسميح القاسم ... نضحك لنكتة عابرة يطلقها سعيد ... نعيد بعض الصفحات من مذكرات تشي غيفارا ليلة الحصار المعروف . وعندما ينتصف الليل وتصل النجوم الى الطرف الاخر من السماء نحمل اسلحتنا وننتشر في السهل . نرصد تحركات العدو على الطرف الاخر ... نتحاشى اضواءه ثم ننفخ على ايدينا لنمنحها الدفء . تمر الايام الاولى بصعوبة ، اشعر الشمس عدوا يرسل الى ذاكرتي بنيرانه . ابحث عن الاحلام الثورية ... ابحث عن الصور الملونة لمقاتلين تخيلتهم لا يأكلون ولا ينامون ولا يحبون النساء ... ابحث عن رجال يقفزون جدرانا عالية دون ان تكسر ايديهم واعناقهم ، القى رجالا عاديين يضحكون ويأكلون ويخافون احيانا . احاول ان اقرب المسافة واعقد صلحا بين الحلم والخيال .

ابدأ التدرب الحقيقي على استعمال السلاح . لاول مرة امسك بيدي بندقية . استعرض كل الانواع ذات المنظار التلسكوبي والفرنسية القديمة التي احدثت في كتفي

اثارا لم تمح الى الان . اما التشيكية فقد كانت افضلها . يمر شهران على وجودي . انتقل الى استعمال الرشاشات من نوع كلاشينكوف ، كارلو ، تومبسون ، ومسدسات ٦ مل موبندقيات قديمة من عيار ١٦ ملم .

ثلاثة اشهر ، اربعة ، وانا افتقد الصبر والجلد والمثابرة التي يتطلبها التدريب . افتقد ثقتهم بي كثيرا . امرأة واتكلم لغة غير لغتهم . اتحدث عن النظريات ويفضلون ان يتكلموا عن ماضيهم في المدن العربية ... ثقافتهم النظرية تكاد تكون معدومة . ومهمتي تقتضي ايجادها ... مهمتي تقتضي ايجاد لغة تواصل بيننا هي الاشق بالنسبة لي . يأتيني « تشي » في لحظات الغياب والوحدة . يذكرني بأن علي ان اجد الجسور التي تربطني بهم . ابحر في وجه « تشي » الذي يرافقني ابدا . أرى وجوه رفاقي في ساعات الصبح ابطالا ينتظرون لحظة الفعل .

(تمضي الايام بطيئة ... سريعة ... بطيئة مرة اخرى ، يستبدل الفريق قائد المعسكر بمقاتل جديد . يأتي « ابو مشهور » ليشغل مهمة توجيهنا . اصغرنا سنا واكثرنا جراة ... نتعارف . اكتشف مع مرور الزمن شجاعته الخارقة . كان قد كرس نفسه للقضية الفلسطينية واستحوذته كليا . الرجل الكامل ، اليوم اذ ترعبني الشوارع المظلمة والغرف الباردة واوروبا المثلجة والرجال المتقاعدون عن الفعل الثوري . اذكرك بمرارة . اعطيتني دروسا في النظام والتقيد بالاوامر دون ان تقول لي كلمة واحدة .

نتحدث عن « الطيرة » ، القرية التي ولد ابو مشهور فوق ترابها . أين تقع « الطيرة » ؟ كم انت جاهلة يا نادية! تقع الطيرة حيث تقع فلسطين ... لا يمكن ان تكون « الطيرة » الا في فلسطين هناك مات الرجل الكبير . هكذا كان يقول ابو مشهور ... من الرجل الكبير ؟ « هناك مات ابي وكان في جنازته ثلاثة أشخاص : شيخ الجامع ، واخي ، وحفار القبور . دفن تحت صوت قنابل ١٩٤٨ وتركنا في هذا العالم » .

نتحدث في لحظات اخرى عن « المخيم » ووكالة غوث اللاجئين ... لماذا سموها وكالة غوث اللاجئين لماذا؟ يصمت عالم الدم واللحم . يصمت « ابو مشهور » . تستيقظ موجات الاثير الاسمر في تلك الساعات من ليل السهول الجنونية لاحدى الدول ... تدق الساعة معلنة انتصاف الليل . يلذ لي فرحي بالانتماء لهم . أحب احاديثه . احس فيها رنة غامضة كالنحيب المكتوم . كسر خفي تكاد الحروف تتمزق فيه . تدق الساعة ... نأوي الى المعسكر . الموت يحدق بنا على الطرف الاخر ... اسلحتنا في ايدينا وننتظر.

تمضي الايام وانا تحت الشمس والليل واحاديث ابو مشهور . يتعتق مصيري امراة ، شجرة ، قديسة . امراة ملكت جسدها وروحها وموتها ، تنتهي اسطورة الصيف ويبدأ الليل يهب في الدروب كريح قاسية توقظ في داخلنا الرغبة بالدفء . متى ندخل ساحة الموت ؟ يضحك « ابو مشهور » ... يبدو أنك تضيقين بجلدك يا نادية . الايام اتية والمعركة طويلة . حزم الاعشاب البرية تنطرح تحت أجسادنا ونتعانق

مع الارض . نشم بها رائحة المطر والايام التي تأتي . تغرب المدن في ذاكرتنا وتبتعد ، ستة اشهر ولم نشم رائحة المدن ... لم نشم رائحة اجسادنا في رماهها المترف. نقاوم ونتمرد دون ان نسمح لمغرياتها بالتسلل الى رؤوسنا، ارادتنا ، عقلنا ، وما يشغل تلك العقول المتفتحة على عالم رائع لا نريد لانفسنا ان نغيره . نحتفظ بوجوهنا ونظراتنا . تعبر ابتسامتنا مع اللحظات الاولى لاشتهاء الجسد وتتبدد في ذاكرة اللحظة .

ذات ليلة يأتي عصام ، ينتحي بي جانبا ويبلغني : « ان علي أن اغير حياتي » . أتساءل باستغراب وخوف : ماذا يعني ذلك ؟ يظل صامتا ... يأمرني ان اهيء نفسي للرحيل . اجمع اشيائي دون تردد ، فالثورة لا تقبل الرفض ولا التردد . الح وجه « ابو مشهور » الى جانبي في سيارة « الجيب العسكرية » وهي تنحدر نحو الجنوب . المعسكر خلفنا بأضوائه البسيطة جمرة انتظار . اهمس في اذنه : هل تعرف الى اين نحن ماضيان ؟ لا ادري . يجيبني ، وعصام صامت . السائق يدخن سيجارته بهدوء وبعض النسمات الباردة لسهول الجنوب تتسرب الى اجسادنا فنرتجف ... تستمر السيارة في طريقها والصمت على وجوهنا جميعا . ندخل حدود « حران » يستوقفنا ضابط الامن ... يطلب الينا بسأم ان نبرز هوياتنا . لقد تعب من عبور المقاتلين . يرد الينا البطاقات وينشق فمه عبارة : في المرة القادمة عليكم باحضار هوياتكم الحقيقية . يبتسم « ابو مشهور » . ابتسم انا . هل لنا من هويات حقيقية غير هذه ؟ لقد انتهينا الى حقيقتنا بعد ان امضينا شطرا من عمرنا دون هويات ولا حقيقة . نستمر باتجاه

الجنوب تاركين الطريق العام ... مبحرين في غابات الزيتون والسنديان . قريبا من أضواء تنبعث من خلف الهضبة ، تتوقف السيارة ونهبط ثـلاثتنا . يسبقنا عصام بخطوات واسعة كان الليل جزءا منها . نلحق به ... صوت من بعيد يسالنا كلمة السر . اسمع عصام مجيبا : جنيف .

تدهشني اجابته ؛ أتخيل انها احـدى « سحباته » القديمة ايام مقهى المتحف الحربي . نعبر الى الداخل ... الى خيمة صغيرة مضاءة بلمبة غاز . نفاجأ بوجوه رجال اخرين ينتظرون . يعرفنا عصام : نايف وفرحان ، نادية و « ابو مشهور » . وجوه رافقتني فيما بعد في اكثـر العمليات التي قمت بها ... نفترش تراب الخيمة وننتظر . لا بد وان هناك امرا يدعو الى هذا الاجتماع الطارىء . يتكلم عصـام :

ـ الرفيقة نادية ، مسؤولة الاعلام في معسكر الشهيد الحسيني . شاعرة ثورية وتجيد الانكليزية .

ـ الرفيق « ابو مشهور » من افضل مقاتلينا،لقد تدرب جيدا في كوبا على حرب المدن .

ـ الرفيق نايف ، ضابط سابـق في احـد الجيوش العربية ، قائد طيارة ميغ « ١٧ » .

ـ خرصان خبير متفجرات وكيمائي سابق .

نحدق في وجوه بعضنا البعض محاولين الذهاب الـى ابعد من التعريفات ... ننتظر ان ينطق عصام بالاسباب التي جعلته يفكر باستدعائنا .

ـ لقد قررت القيادة توسيع ساحة المعركة ... تعريف

العالم اجمع بقضيتنا ، تعريف العالم بأننا هنا نقاتل وننتظر العـــــودة .

كان الصمت على رؤوسنا جميعا كطير ليلي . فهمت ان الاخرين مثلي لا يدرون شيئا عن هذا الاجتماع المفاجيء . توقف عصام ليسترد انفاسه ثم عاد للحديث من جديد :

ـــ لقد قررت القيادة تكوين نواة للقيام بعمليات فـــي الخـــارج .

قاطعتـــه مستفسرة :

ـــ ماذا تعني بذلك ؟

اجـــــاب :

ـــ اوروبا الغربية واميركا .

هاجمتني مباشرة اخبار التصفيات الجسدية التي قامت بها بعض الحركات الثورية في اميركا اللاتينية على الساحة الاوروبية ... تصفيـــة الحسابـــــات ... صراع بعض المخابرات الغربية مع بقايا النازية ، الملاحقة التي لم تهدأ حتى اغتالت تروتسكي . خفت ان يكون الرفاق قد دخلوا في سلسلة اعمال منهذا النوع ، فعدت للتساؤل :

ـــ وماذا تعني بالعمليات الخارجية ؟

ـــ خطف الطائرات ، تفجير بعض الشركات الكبرى التي تزود اسرائيل بالاسلحة والمعدات ، نسف الشركـــات الاميركية في المنطقة .

بدت وجوهنا جامدة . مرت الدقائق بطيئة .. اتجه الرفاق بعيونهم الي منتظرين ان آخذ المبادرة بالحديث ... كنت غارقة بالتفكير . بدت لي الفكرة ضربا من الجنـــون ،

لا سيما وان الثورة لم تثبت مواقعها على الساحة العربية . وحتى تلك اللحظة كانت عملياتنا في الارض المحتلة ما تـــزال ضئيلـــة .

يسأل ابو « مشهور » :

ـــ ما هو الهدف الاستراتيجي من مثل هذه العمليات؟

يجيـــب عصام :

ـــ التعريف بوجودنا هنا ، انت تعرف جيدا ان الانظمة الرجعية تستطيع القضاء علينا في اية لحظـــة عندما تتطلب مصلحتها ذلك . ثم هناك مسألة ايقاف الهجرة الى الارض المحتلـــة .

يبدو وجه ابو مشهـــور محمـــلا بالرفض والاسئلة .

يقول لعصام بحزم :

ـــ هذا اسلوب خاطىء ، على الثورة ان تثبت اقدامها هنا ... هنا في الساحات العربية . الاعلام لا يمكن له ان يحسم المعركـــة .

يسألني عصام رايي... ينتظر... انتظر انا ان تتحرر المراة ـــ الشجرة في داخلي من موتها وخوفها .

ـــ علينا توسيع ساحة المعركة ، علينا ان نعزز عملياتنا الخارجية بعملات في الداخـــــل . انا لست ضد العمليات الخارجية من حيث المبدا .

يستمر النقاش حتى الصباح وينتهي بناالامر الى قبول قرار القيادة العسكرية بالاتجاه الى جنيف لاتمام اول عملية .

يسيطر الوجوم على وجه « ابو مشهور » وينتقـــل بعينيه الى اللمبة الغازية يراقب تذبذب الشعلة الصفراء ، بينما اخذ بيده عودا وبدأ ينكث الارض امامه كحصان قلق .

كانت الاوامر واضحة ، ونقاش الليلة الماضية يحتم علينا ان نغير نمط حياتنا واسلوب تدريبنا . ننتقل الى معسكر خاص ونبدأ تدريبا شاقا ومرهقا على حرب المدن . نمضي الساعات الاولى من النهار ونحن نطلق النار على اهداف قريبة ... نركز على استعمال قدراتنا العصبية ... نحاول أن ندرس خارطة اوروبا جيداً . مطاراتها ... مدنها ... شروط مناخها ، وفي المساء اعود الى خيمتي لمراجعة بعض الدروس في اللغة الانكليزية .

توصلت بعد ايام من التدريب الى اتقان الرمي البعيد المدى والقريب ، الامر الذي ادهش كافة الرفاق الذين كانوا معي ورأقبوا الصعوبات التي مررت بها في البداية . هذه طبيعتي ارفض كل جديد في البداية لاقبله في النهاية) .

تذكر فرانك

مرة ، وقعت عيناي عندك في البيت على مسدس ٦ ملم ... حملته بيدي وفحصته بينما كنت ترقبني صامتا ... اعدته الى مكانه في درج الطاولة والتفت اليك ... كنت تتأمل حركة يدي بفضول غريب . فهمت ان هناك خاطرا ما براسك في تلك اللحظة . ضحكت وانا اقول لك :

— انني اخاف رؤية السلاح .

اجبتني دون أن تبتسم .

— لا يبدو عليك هذا .ان طريقة امساكك بالمسدس تدل على انك تدربت فعلا على استعماله .

لم اعلق على حديثك ابدا ، خفت ان اكشف اوراقي والقي بجواز سفري المزور الذي يحمل اسم امي الحقيقية وابي الحقيقي واستنجد بنادية التي كنت . من الصعب

ان يخفي مقاتل وجهه عن مقاتل اخر . نخضع لشروط واحدة تطبعنا في كلامنا واسلوب تفكيرنا وطريقة سيرنا .

نعم يا فرانك ، عرفت استعمـــال السلاح في المعسكر الضائع الان تحت الشمس .

وهناك قالوا لي : ان سلاح المقاتل ثروته واذا فقده فان حياته ستكون دائما في خطر .

وهناك قالوا لي : المسدس من اهم الاسلحة في حرب المدن . خفيف ويمكن اخفاؤه بسهولة .

وهناك قلت لهم : اكره ان اقتل في النهار ... فـــي وضح الشمس ... اكره أن ارى الموت واعيشه ؛ حـــرب الريف والغابات اكثر انسانية واحتمالا ... في المدن حيث الوجوه بالوجوه ... حيـــث الانسان المرعب والانســـان الآلهة،نطلق الرصاص على مدى متر او مترين او ثلاثة ونعرف اننا اما مقتولون او قاتلون ، اما في الريف ففرصة ان ننجو من الموت كبيرة .

في المعسكر وتشرين جنية مرعبـــة .. المطر يغسل اشجار السنديان ، لقد بدا الشتاء والعملية ستنفذ خلال ايام ... تعرفت بشكل افضل على ابو مشهور . نستيقظ في السادسة صباحا ونجري التمارين الرياضية ... نسير على الاقدام مسافات طويلة ... نقطع الحشيش القريب مـــن ابواب المعسكر ... نعيد تركيب اسلحتنا وفكها . ونتحدث عن كل شيء .

يحكي لي عن عدم اقتناعه بجدوى العملية واجيبـــــه دائما : « عليك انتفكر ابعد من ذلك. نحن بحاجة الى الاعلان عن انفسنا » . يحكي لي عن ابيه الذي ذبح امام عيونهم في

قرية « الطيرة » . عن اخيه الذي فقد عينه في حرب ١٩٤٨ . عن مجموع الايام التي عاشها في مخيم اللاجئين . اما آنا ، فلم يكن لدي ما اقوله له . فأبي يحيـــا ولم اعرف الخيام او التشرد . بل عرفت الخطب الطويلة والرنانة عن الـــدم الازرق . الاصفر الاحمر .

لو حدثت « ابو مشهور » يومذاك عن خطب ابي لضحك كثيرا وظل يرددها كمادة تسلية لشهور ... لو قلت له شيئا عن الزوج الغني الذي ماتت امي حزنا عليه لاعتبر ذلـــك نكتة الموسم القادم وسماني (ارملة الثروة) . لم اقل شيئا عنحياتي الماضية واعتبرت ان ذلك قضية محسوسة .

نتحدث عن الارض كثيرا ... نتحـــدث عن الماضي والحاضر والمستقبل . من الصعب انيتحدث الفلسطيني عن الارض دون الماضـــي ، ومـــن الصعـــب ان يتجـــه الى المستقبل دون الارض . يأتيني ذات مساء حاملا في يده كتاب « دوبريه » « الثورة في الثورة » : نمضي الليل معا في قرأعته ... نتوقف قليلا عندبعض المقاطع التي تحدد مهـــام « البؤرة الثورية » لقد اخطأ دوبريه كثيراً بتعميمه التجربـــة الكوبية وجعلها قاعدة بالرغم من الخصوصيـــة المطلقة التي تحكمها . اقول هذا لصديقي ويختلف معي كثيرا حول هـــذه النقطـــة .

يجيبني وعيناه تلمعان في ظلام الليل :

ـــ خطأ دوبريه ، انـــه اعطى اهمية كبيرة للطليعة المثقفة ، وميزته اخراج المبادرة من يد الاحزاب السياسية المتعفنة . لقد نسي ان يؤكد على اهمية تحالفات الطليعة ،

— ربما كان لدوبريه عذره في التركيز على دور الطليعة المثقفة . فهو مثقف لم يستطع ان يمر بسهولة الـــى صحبة الثوار . لقد عاش لفترة مرفوضا منهم .

اصمت قليلا ... اتذكر الجـــــدل العقيم الذي كنا نخوضه في آروقة الجامعة وصالات اتحاد الكتاب . اقـــول لصديقـــي :

— تعرف انني لا اثق كثيرا بالمثقفين ، لكنني اجد صعوبة كبيرة في فهم لغة المناضلين البسطاء . هذا الشيء اكتشفته هنا في المعسكر . قبل ذلك كنت احلم في الجامعة ، في اتحاد الكتاب، كنت في حالة تقزز من الوجوه التي تشبهني ، مثيلاتي، نظرا لما تبدو عليه من اكتفاء ولا وعي وايمان بالقدرة الكليـــة للتصور ، ثم عرفتكم وانتم اكثر قابلية للحياة .

— تفقدين جذورك ولا تستطيعـــين ان تجدي جذورا جديدة لك في وسط اخر ... هذا هو الاغتراب . او بالاحرى الاغراب . نحن نوع اخر من البشر، لكن لنا نقائصنا ومزايانا، لا سيما عدم الاكتراث المطبوع والمكتسب بكل ما لا يخـــدم مصالح الثورة « المباشرة » . ولما كانت الموسيقى والجنس وعيون النساء ورائحة الياسمين ومظاظات الحلم غير ذات نفع للعمل الثوري ، فأنت مغتربة وستبقين ممزقة .

لقد وضع « ابو مشهور » يده على الجرح .

— ولكنكم كنتم لي حتى الان وستكونون اخوتي وليس لي من اسرة اخرى . معكم تعـــودت اشياء الحياة اليومية فأصبحت محتملة ، الضحك المحتمل مع الالم ، هذا الضحك غير القابل للاحتمال بلا ايمان بشيء هناك فيما وراء الحياة واللحظة .

ينتشر الليل في دمه ودمي ... تصفر الريح في السهول

الجنوبية لاحدى الدول العربية ، الشمالية لدولة اخـــرى مجاورة ، تصفر الريح ويقترب الليل من النهاية . نحن شجرتا سنديان في طرف الغابة . ننتظر الشمس والمطر والرياح ، وفي انتظار كل شيء نمد اغصاننـــا ونتعانــق ... نقرب رؤوسنا كالقطط الضالة واقول له :

ــ غدا نرحل الى جنيف ، هل انت مستعد لذلك ؟

ــ ماذا تقصدين بالاستعداد ؟.. لقد تدربت جيدا .

ــ لا ، اقصد هل اقتنعت بجدوى العملية ؟ لقد كنت معارضا لفكرة في البداية .

ــ ما زلت غير قانع بنتائجها ، لكنني اعرف ان علي ان انفذ اوامر القيادة مع وعي كامل انهناك اوامر وتعليمـــات خاطئة ، وقابلية القيادة للخطأ .. مأخوذة بعين الاعتبار ، ولن انسى ابدا حتى ولو مت اثناء هذه العملية : ان القادة اناس آخرون ، لهم تاريخهم ولي تاريخي الذي لا يتساوى بالضرورة مع تاريخهم .

ينتشر الليل في دمنا صمتا ويبدو النهار من وراء الهضبة المجاورة . يجر الليل نفسه من جسدي وجسد العتمة . القي نظرة حولي على المعسكر وعلى وجه رفيقي . قد اعود ولا اعود، ولكن الموت كف عن ان يرهبني منذ فترة. منذ اكتشفت انني لا اطمح ان اكون واسطة بين ابي وابنائي . تأتينـــا « سيارة جيب » ، نركبها دون امتعة ... لا متاع لدى المقاتل ... لا حقائب . وآحيانا، وهذا الاكثر مرارة ، ليس مـــن حـــــب .

فرانـــك !

الليل في اخره ، مشدودة انا الى مقعدي في زاوية المقهى على جسدي آثار الريح وصقيع هذه المدينـــة الرهيبة وفي راسي انت ... وجوه رفاقي جميعا ... عينتاب التي تحترق وتشتعل نورا . كم أنا بحاجة لكفيك ... لعينيك...لصدرك كم انا بحاجة اليك يا بقايا الثورات والسجون وقلاع النسيان، كلنا نحاول ان ننسى ولكنني منذ الامس اقاتل النسيان في جسدي وفي راسي ... لقد استيقظت المراة ــ الشجرة ولم بعد من خطر ... علي بالمواجهة ... علي بالمواجهة .

اتذكر الان لحظة وصولنا الى مطار جنيف . هي المرة الاولى التي تطأ فيها قدماي صقيع اوروبا العجوز ... وجه « ابو مشهور » الى جانبي وعيناه ــ كما عهدتهما ــ محملتان بالاسئلة . تبدو اسئلته جملا كبيرة تمتد على ذاكرة الزمن .

الثلج يغطي وجه جنيف ... اراها من نافذة الطائـــرة بيضاء دون ملامح . تقترب الطائرة من مدرج الهبوط ... ننتقل عبر الممرات المضاءة الى حاجز البوليس ، نمد جوازات سفرنا الامريكية وننتظر ، دقائق ونعبر الى صالة الجمارك . تنتهي الاشياء بسرعة . لم نجد صعوبة كبيرة في دخـــول سويسرا . نعبر الى صالة الاستقبال ونلتقي بخوفنا وترددنا . نشعر اننا ننتظر الحرية ... نمد يدنا الى الحرية بعد زمن.

المعلومات التي زودت بها تقتضي مني التوجه الى فندق « ريتنر » في الرقم « ٢٣ من شارع دنفير روشرو » . هناك سالتقي رفيقا آخر قادما من المانيا مهمته ترتيب اقامتنا فـــي جنيـــف .

نترك صالة المطار بسرعة ...عيناي لاتكادان تستقران على الرؤوس التي تمر بنا ... لم يداهمني اي احساس بلذة

اختراق مدينة جديدة . انا التي تعـــودت ان تمنحها المدن الرغبة بالانعتاق والاكتشاف والمغامرة ، وجدت نفسي فـــي جنيف احسب الثواني واعيد ترتيبها .يقترب مني «ابومشهور» قليلا ويهمس في اذني : « عليك ان لا تنسي انك زوجتي كما ينص الدور » ، اضحك ، حبات مطر خفيفة تغسل شعري . نصعد معا احدى سيارات الاجرة ... نتجه الى العنوان المحدد لنا . قريبا من بحيرة « ليما » ، في الطرف الغربي من جنيف ، يقع فندق « ريتز » ... يتوضع ما بين نصب الجندي المجهول والطريق الذي يؤدي الى « لوزان » ، يطل علـــى البحيرة التي تحولت الى صقيع بفعل الشتاء .

تتوقف السيارة امام الفندق ، يقول لنا السائق بفرنسية مشوبة بلكنة المانية ، ايطالية ، مالطية ، لم اعد اذكر .

ـــ الفندق هنا ، انتظرا قليلا حتى اساعدكما على انزال الحقائـــب .

اترك « ابو مشهور » معه واعبر الى الصالة الداخلية. تلفحني حرارة المكان ... احس شيئا من الامان ... الساعة تشير الى الثامنة والنصف مساء ، وموعدنا مع الرفيق القادم من المانيا في التاسعة ، نصف ساعة فقط لابدل ثيابي واغسل وجهي واستريح.انتظر فيقاعة الاستقبال دخول«ابومشهور» نتجه الى عامل الاستقبال ونطلب منه مفتاح الغرفة التـــي حجزت باسمينا . نتناولها مع ظرف قال لنا العامل انه قد وضع باسمنا قبل نصف ساعة فقط .

نتجه الى المصعد ... يتبعنا عامـــــل الفندق حاملا حقائبنا ... غارقا في ثرثرة يبدو انه قد تعودها منذ زمن ...

منذ بدات البحيرة تخضع لاضطهاد ريح الشتاء . منذ بـــدا الليل في جنيف يعيش اكثر من نهارها .

ـــ كان الثلج غزيرا هذا العام ، خسارة انكما وصلتما فـــي هـــذه الايـــام القارســـة . ستكـــون اجمـــل فـــي الربيـــــع ، البحـــــيرة متجمـــــدة منـــــذ أيـــــام . اوه ، لم يبق من بط بري ، ستعود مـــن جديد لاستقطاب اسراب الحمام المهاجر الى السهول الايطالية .

كان يثرثر بالفرنسية ، وكنت احاول ان افهمه انني اشاركه الحديث . نصل الطابق الخامس حيث غرفتنا ... تعبر الممرات الطويلة والمدفأة جيدا . نبلغ الغرفة . غرفـــة واسعة وجميلة . تطل نافذتها على بحيرة « ليما » وتكشف جبال الالب السويسرية بارتفاعها المنحدر نحو الســهـــــول الفرنسية . يشرح لنا العامل كيفية استعمال الهاتف ، الزر الكهربائي لطلب بعض الحاجيات ، الحمام ، التواليت . كل شـــــيء .

يتركنا ويمضي ، اخرج الظـــــرف الذي وجدته مع المفاتيح ... افضه ... كلمة من رفيقنا القادم من المانيـــا يخبرنا فيها عن اضطراره لالغاء موعده معنا هذا المساء .

اشعر بشيء من القلق ... احاول ان اخفي ذلك عن رفيقيْ . اتساءل : ربما حصل شيء ما يخل بخطتنا ... اتجه الى الحمام لاغسل وجهي من اثر السفر المرهق الذي عانيته ما بين عيتاب وجنيف . يرن الهاتف فأسرع اليه . رفيقنا القادم من المانيا يطلـــــب الينا ملاقاته في التاسعة والنصف . نرتدي ثيابنابسرعة دون تبادل اية كلمة ، ونتجه

الى المطعم الذي يقع على بعد ثلاثمائة متر تقريبا من فندقنا . مطعم ايطالي على ما اعتقد . على ضوء الشموع الخافتة التي يعشق السويسريون استبدال اضوائهم بها نتحدث بالانكليزية عن رحلتنا ، يخبرنا الرفيق : ان موعد العملية قد يقدم يوما او يومين نظرا لاضراب ستقوم به شركة الطيران البريطانية ، الامر الذي يجعل شركة « العال » تزيد عدد رحلاتها الى الشرق .

احدق في وجهي رفيقي ... وجهان ملوحان بالشمس لشابين لم يبدآ الخامسة والعشرين بعد . تختفي امامي الحدود والمدن ووجوه الرجال ... اشعر برغبة لا تقاوم في طي الزمن والانتهاء من مهمتنا في اسرع وقت ... اتذكر وجه عصام بعينيه الغائرتين وصوته الاتي من المخيمات الفلسطينية:

« اننا محاصرون ، القضاء علينا لن يكلفهم كثيراً ، لكننا سنخسر وجودنا » .

« المخيمات التي تحولت الى قواعد شعبية للثورة ومخازن للسلاح ستعيش طويلا بانتظار ان نفتح لها جسورا تعبر عليها الى البيوت التي لفظتها ذات يوم » .

اتذكر يوم الخامس من حزيران... الهزيمة، الخيبة... الخطب ، والحزب الذي كنت انتمي اليه ... الحزب الذي رباني واثقل راسي بالحكايا العقيمة ... الطبقة العاملة ... النضال النظري ... العدالة .

يوم ودعتهم « مهاجرة » كطيور الصيف وجسدي ينزف الما وخيبة قال لي الامين العام : « عبثا حاولنا ان نجعل منك مناضلة حزبية جيدة » .

اجبته والنيران تجتاح راسي ودمي واعصابي :

« لكنني كنت بينكم بقرة طيبة غبية ... غبية جداً . ستعيشون دهرا اخر لتفتحوا عيونكم على الواقع الـــذي ولدته الحرب . المعركة الان قومية ، ومع عدو يجهد للقضاء علينا . لنلجأ الى السلاح .

واذكر انه اتكأ بعجز على مقولـــــة لينـــين في كتابه « الدروس المستخلفة من حركة موسكو ــ ١٩١٦ » : « يجب عدم اللجوء الى السلاح » .

وذكرته بالجزء الثاني من المقولة :

« بالعكس ، عليكم باللجوء له بشكل اكثر جدية وحيوية، ضمن تصور أكثر حماسا . عليكم ان تشرحوا للجماهـــــير اللاجدوى من اللجوء الى الاضرابات السلمية ، بل ضرورة حرب متطرفة وعنيفة وذلك كهدف مباشر للنضال المستقبلي . واذا ما جهلتم ذلك فكأنكم تغشون انفسكم وتغشونها » .

قلت له : « راجع الكتاب جيدا ايها الرفيق ، لقد جاء الوقت الذي نتحدث فيه عن الصلاة والسكارى » .

انظر الى وجه رفيقي ، الوجهان فلسطينيان ، الوجهان ينتميان الى شعب ادرك بالفطرة ، وبعد ايام من سقـــــوط الاقنعة المزيفة لاحزاب سياسية ، حرقت ايامها في الكتـــب وانتظار رنين أجراس تأتيها من هنا وهناك تحدد لهانوعيـــة حركتها ، ان السلاح هو الحل .

تستيقظ المرأة في داخلـــي ... تستيقظ امرأة طفلـــة ترتعش في ليالي البرد الذي يقاوم دفء المتوسط وصدر الجبال القريبة منه ... اتذكر المتوسط امامي وابي . يحـــدق بي رفيقاي ويضحكان .

ـــ اين انت يا نادية ؟ لقد ذهبت بعيدا عنا .

ـــ كم اشعر بضرورة الثورة في البلدان التي تركتها !

ـــ لم تكتشفي جديدا .

قال هذا ابو مشهور وتابع حديثه مع رفيقنا الاخر .

اتذكرك انت ... اشعل الرأس بك ، كنت قد ادمنت قراءتك وقراءة صاحبك . ومحاولة ان اكتشف واقعي على ضوء تجربتكما في الغابات البعيدة ، كيف استطعت ان تهرب بجلدك من صقيع المدن الاوروبية ، كيف ؟.

احس الليل وثلوجه وشموع البحيرات ... النساء الجميلات يملأن المكان ... يفوح الدفء من كل شيء ... الشك تحول الى يقين في رأسي حول جدوى العملية التي سنقوم بها انا ورفاقي . لماذا لانقلق راحة هؤلاء المستسلمين لترفهم ، لماذا ؟ نهزهم . ليمطر الليل دما على اسفلت شوارعهم النظيفة ... ليسمعوا ان هناك من يجوع ويتشرد . كل شيء حولي يبدو كدافع مهم ومشجع لان ابدأ ... ربما من اي مكان في العالم .

الليل في جنيف ليل اخر لرجل وامرأة جاءا باحثين عن هويتهما ... عن شعب لهما ينزف حرقة .

اقرب وجهي من وجه « ابو مشهور » وامسح انفه بأنفي ... اضحك بشيء من الفرح . تمتد بي الذاكرة الى الايام الماضية . لو تزوجت ذلك الثري المترف لكنت الان آلة تفريخ ممتازة ... لو تزوجت ذلك المترف لكنت الان اطوف اوروبا مع امواله وكرشه واسنانه الصفراء دون هدف

سوى شراء بعض الاثواب الجميلة من شوارع باريس ولندن.

ما انبل ان يعيش الانسان من اجل قضية ! علينا ان نخاطر بجلدنا لننقذ حياتنا. انفقت ايامي في الماضي احتمي خلف الكتب والاهل والنظريات والصداقات والاتصالات والعادات. احتميت كثيراً ودللتني الثقافة . هذا الهدير المنبعث من اعماق العصور . كنت اخشى ان اموت لانني اخشى ان اعيش . والان لا يبدو لي الموت موتا : انه مخاطرة جميلة تخاض ، ابدية لا مبالية ، مخاطرة امكانية الخسارة التي بدونها ليس ثمة ما يربح قط . اشعر انني شجرة تمتد فروعها الى السماء ... تحرك ناقلة ظلها وفرحها وحزنها اينما اتجهت ... اشم رائحة الصنوبر في كل زاوية من المكان الذي نحن فيه ... اغرق في عطر الصنوبر ... اتحرر من الخوف والموت والماضي ... اضحك بصوت مرتفع ... يمسك « ابو مشهور » بيدي :

ـ ما بك ؟ هل تحولت الى شاعرة مرة اخرى ؟

احاول ان اشرح له معنى « الضربة الصاعقة » التي تأتينا أحيانا كالوحي وتجعلنا نعيش متوحدين مع حقيقتنا الخاصة . لقد آثرت ان اكون صادقة واتحدث عن ذاتي تلك الليلة .

نقف ، نقطع الشارع المقابل للمطعم ... نسير تحت المطر الخفيف بهدوء . نتكلم عن كل شيء ولا نتحدث عن عمليتنا. الخطة تقتضي ان لا نناقشها طويلا قبل التنفيذ ... يبدو أن رفاقنا في القيادة قد انتبهوا جيدا للنتائج النفسية التي تولدها مناقشات كتلك .

نصل الفندق ، نتجه معا الى المصعد . يودعنا الرفيق « القادم من المانيا » ويمضي .

يلتقي وجهي بوجه « ابو مشهور » في المصعد ... ارى غابات الزيتون في عينيه ، نبل حاد لوجه عاش وكبر في المنفى ... اسند راسي الى كتفه ورغبة داخلية عميقة تدفع بـــي لان اقول له شيئا . يمسح راسي وينحني عليه فيقبله . يقول لي : « ايتها الزوجة المؤقتة لنكن عاشقين ! » .

اسمع صوته يأتيني لاول مرة بوضوح ... وضوح يشبه اغنية بلا غيتار ولا مصاحبة موسيقية ، انشودة كئيبة يعبرها الكثير من الامل ... توجه لامراة يساوي جميـــع رسائل الحب التي كتبت ... الاشعار الهزيلة التي تعـــب شعراء اتخمتهم الشمس والوجبات الدسمة في نظمها .

نصل غرفتنا ... غرفة زوجين قادمـــين من اميركا لقضاء شهر عسلهما في اوروبا ... نحاول ان نتحدث عـــن الاطفال والملائكة والتجارة والتحف التذكارية ، خطة العملية تقتضي ذلك ... كنا نخاف ان تكون الغرفة مراقبة ، او انهم قد ثبتوا مسجلات فيجدرانهـــا ... نحاول ان ننام ... اصوات الصمت تنبعث في سماء غرفتنا كنحيب مكتوم .ابحث عن النوم ... ابحث عنالسكينة . اتذكر كل ما حفظت من حكايا امي واعيدها على راسي ... ارى الوجوه تتبدى لي في الظلمة ، واخاف ان اغمض عيني حرصا على الزمن الذي اعيشه . يتقلب « ابو مشهور » الى جانبي ويلمحني علـــى الضوء القادم منالنافذة ... يسالني : اما زلت صاحية ؟

نتناول معا سجائرنا ونبدا فيالتدخين .

يأتي الصباح ونحن ما زلنا في الفراش . المح الضوء

يتسلل الينا من النافذة ... اترك السرير واتجه الى الضوء، ازيح الستائر ... ارى جنيف ترقد في الساعات الاولى من النهار ... السقوف الخشبية الحمراء تنحدر باتجاه البحيرة ... البحيرة تتجه الى بحر لا يعرف مصبه ... كل شيء في هذا العالم يتجه الى مكان ما ، ونحن ؟ يقرع الباب ويدخل عامل الفندق حاملا بيده صحف الصباح وقهوتنا . المح وجه العالم العربي كالحا في صحف اوروبا . « جورنال دو جنيف » يتحدث عن امكانية زيارة متوقعة لوزير الخارجية الاميركية الى احد بلدان المواجهة و «هيرالد تريبيون » تتحدث عن رفع اسعار النفط ... انتقل للصفحات التالية فأرى وجه أوروبا العجوز ومشاكلها ... ازمة الانتخابات البلدية في فرنسا ... التأمين الصحي في ايطاليا ، قضية تحرير المراة في انكلترا .

ينظر « ابو مشهور » الى تعابير وجهي وانا اقرا نبأ زيارة وزير الخارجية الاميركية للشرق مرة اخرى ويسألني :

ـ ايه ، ما رايك ؟ هل سيكون راسنا هذه المرة ؟

اشعر بحقد عجيب على هذا الكون .. لماذا لا نحول الطائرات ؟ لماذا لا ننسف الشركات والمؤسسات والبيت الابيض ، لماذا ؟ هذه ضرورات علينا ان نفهمها في وجه اللاشرعية التي نعامل بها .

فرانك ...

لماذا احدثك الان عن كل هذا ؟ اسمع صوت السكارى يغنون (آه لو يرجع زمن الكرز) انظر الى اوراقي البيضاء كجثة ملفوفة جيدا بأكفانها . ما زلت مشدودة الى مقعدي

في زاوية المقهى ، يخطر ببالي ان اسأل الخادم عن اسم المقهى ، اناديه ، أطلب منه كأس براندي آخرى ، يحملها لي وهو يغني مع السكارى الاخرين : « لو يرجع زمن الكرز » .

لو يرجع زمن الكرز ، لو كنت هنا هذه الليلة لجلسنا على الضفة اليمنى للسين حيث قريبا من قصر العدالة تنام مجموعة صعاليك باريسيين اصلاء يكتفون بزجاجات نبيذهم وسجائرهم . ان أعظم شيء هو ان تكون صعلوكا في هذا العصـــر .

لو كنت هذه الليلة هنا لحدثتك عن وجه « ابو مشهور » و « جنيف » و « عينتاب » ، وطلبت اليك ان نرحل معا من جديد الى هناك ، حيث تغتسل انت من نسيانك او محاولتك النسيان واغتسل أنا من جبني وعدم قدرتي على مواجهـــة العالم بوجهي الحقيقي . وسنكون صعلوكين ثوريين على طريقتنا . انت لاتعرف شيئا عن عروة بن الورد .

لو كنت هنا هذه الليلة ، لرحلنا معا ، لطلبت اليك ان تتحول الى شيء شبيه بالصاعقة ، بنجم القطب ... ان تهجر هذه الارصفة الميتة ، جمود الحياة وزحمة السير ، المرحلة القصوى للراسمالية والانتخابات التي يلعبون اوراقها على طاولة تسليتهم ، لون الشمس الازرق ، وعشق الالهة لـ « فاغنر » .

لو كنت هنا هذه الليلة ! اطلبك بافرانك واحتاج اليك، احتاجذراعيك وصدرك وعينيك ، احتاجك قبل ان امضي عن باريس حيث لنا في كل شارع من شوارعها لقاء وذكرى ... يؤلمني أن اودعها تحت المطر ، وحيدة ... يؤلمني ان ارحل عنها دون أن يكون في وداعي احد . كم هو مؤلم الرحيل دون وداع ... كم هي قاسية المدن دون احبة !

تفر المناظر الى المستقبل ، افتقدك ولا اشتاق اليك... اشعل الذهن بك ويخفق القلب بذكرى رفاقي السابقين ... احاول الان وفي هذه اللحظة ان احدق في المستقبل ... ارتد الى الماضي يوم عرفتهم ... لماذا الماضي والمستقبل لماذا ؟ انا هنا في هذه اللحظة . يتمرد الليل على حزني ، يتمرد النهار ايضا .

شعب ، قضية ، حلم ، حرب ، كلها كلمات ضائعة .

عد بسرعة قبل ان تستسلم المراة من جديد للتيار الذي يجرفها منذ اربعة اعوام وهي بعيدة عن الوطن ... وهي متبلدة لا عاشقة ولا معشوقة ، لا مناضلة ولا متقاعدة ، قدم على خليجالاسكندرون والاخرى في اوروبا .

انت بعيد ... بيننا قارات وبحار ... و « عينتاب » التي تحترق في صدر البحر من الطرف الاخر . انت بعيد ، والليل طويل ، والعودة الى بيتي تخيفني ... اخا فالجدران الباردة ... اخاف وحدتي وصدر سريري وخارطة الوطن التي تستقر على الحائط المقابل كجثة . جثة الوطن تسكن غرفتي منذ زمن . في كل يوم افتح التابوت الخشبي وانظر الى الجثة فاشعر بشيء من الفرح لانها لم تتعفن بعد . الوطن يموت او بالاحرى مات، لكنه لم يتعفن بعد! حاولت ان ادفنه في صدرك واستريح ... لا صدرك اتسع له ولم يقبل لعينيبديلا . اعدته الى العينين واغمضتهما .

منذ ذلك اليوم ...

لماذا نعود الى ذلك اليوم ؟ على كل حال : منذ ذلك

اليوم ، اذا استيقظت ذات صباح ولم اجد الوطن ... قالوا لي : انه ركب فرسا وسافر الى مكان ما ، سألت عنه في كل مكان ... في جسدك ، في عيني راؤول ، في اغاني « احمد » الاتية من اعماق الصعيد « ليلي ويا ليالي وآه » ، كأس عدنان الذي يحمله ابدا الى البعيد حيث يدفن الاسماء ــ الآلهة ، في أشعار وآيات قرآنية يحفظها الباهي ولا يكف عن ترديدها. الوطن أبتعد ... ركب فرسا وسافر الى مكان ما .

وفجأة صرخت باسمه فجاء الي رسل الحكام واقتلعوا عيني ... وبينما كان الدم يغسل صدري واسفلت الشارع ، رايت الوطن يسقط بين دموعي ويختفي .

منذ ذلك اليوم ،

اخاف العودة الى بيتي ... الجدران الاربعة ترعبني . استيقظت واستيقظت المرأة الشجرة .

اقول : ارغب بالنسيان ، لكنهم بالامس جاءوا الى دمي من بعيد ... من المدن التي هجرتها ... ها هم يسكنـــون كل شيء . آه لو يرجع زمن الكرز !

جنيف والثلوج قد غطت كل شيء . في طرف غرفتنا في فندق « ريتز » تقبع قطة رمادية صغيرة حملها لي عامـــل الفندق هذا الصباح وقدمها لي هدية من السيدة « روزلين » صاحبة صالة القمار ، بعد أن لاحظت بالامس ولعي بالقطط ، اذ داعبت قطها الرومي ونحن على طاولة العشاء وكنـــت معه في غاية اللطف والتهذيب كما يتطلب سلوك سيدة متحضرة قادمة من اميركا ... واذكر انها سألتني مطولا : منذ متـــى

بدأ اهتمامي بالقطط ؟ وهل افضل انواعا بعينها ؟ وهل افكر بانجاب طفل أم لا ؟ ثم غمزت لي بطرف عينها حتى لا يلاحظ ابو مشهور ذلك وهمست في أذني :

ـ عليك بعدم انجاب طفل اذا كنت حقا تحبين القطط ، لان القطط شديدة الغيرة !

وطمأنت السيدة « روزلين » على مصير قطط الارض كلها اذا كانت المسألة تتوقف علي انا .

اقف لارتدي ثيابي ... يرن الهاتف ... اسرع اليه وشيء ما في داخلي ينبئني ان هناك ما يقلق لحظات انتظارنا للعملية التي اقترب موعدها . أرفع السماعة ، يأتيني صوت « صالح » ، يخبرني انه وصل مع نايف منذ ساعة فقط عن طريق « فرانكفورت »...نتفق على اللقاء في مطعم ادوار (٧) قريبا من ساحة الجندي المجهول ... ارتدي ثيابي بسرعة واهبط الى صالة الفندق . ابحث عن « ابو مشهور » بعيني ... أراه في الركن امام فنجان قهوة ووجهه محمل بالمتاعب . منذ وصلنا جنيف لم يتوقف عن طرح الاسئلة : ماجدوى عملية كهذه ؟ ولماذا حرب الجو التي لا مبرر لها ؟

الشك في راس « ابو مشهور » يجعلني اعيد النظر في امكانية اتمام العملية برفقته ... هل استبدله برفيق اخر ؟ وكيف ؟ لم يبق على موعد التنفيذ سوى يوم واحد فقط ، وكل نقاش نبدأه معا يصل بنا باستمرار الى النتائج نفسها . لقد كان من افضل مقاتلينا واكثرهم جراة ، لكنه لم يتمرس جيدا بالنضال السياسي . فقد انتقل من السنة الاولى بالجامعة ليلتحق بالمعسكرات .

اقترب منه ... يظل سارحا يتأمل البساط الابيض الثلجي من وراء الزجاج .

اقــول لــــه :

ـ لقد وصل صالح وفرحان عنطريق فرانكفورت ، انهما نانتظارنا في أدوارد (٧) .

ينتبه الى جملتي الاخيرة ويقف ... نتجـــه معا الى الشارع ... أتأمله خلف نظاراته الطبية التي طلب اليـــه وضعها للتمويه .

احاول ان امازحه قليلا :

ـ هل كتبت وصيتك قبل ان نرحل عن « حران » ؟

ـ لا وصية لي ، سوى انني امنع عليك الزواج مـــن رجل آخر .

ـ اقطاعي عظيم ... لم تتخلص من حس الملكية .

ارى ابتسامة تضيء وجهه الاسمر ، عيناه خلـــــف زجا جالنظارة كعيني اله ... الشك في عيني «ابو مشهور»، الشك في كل شيء . لست ادري لماذا تحمل عينا المقاتل شكا ابديا . عيناك أنت يا فرانك بحيرتا شك ابدية ...

قبل ان نعبر الشارع الـــى المطعم الروسي الغارق بالدفء اقول له :

ـ اما زلت غير قانع بجدوى العملية ؟

ـ ليست هذه العملية بالتحديد ... كل العمليـــات الخارجية . اختلف معكم تماما بالراي .

ـ ارجو أن لا تنقل شكك الى صالح وفرحان ، وان

كنت لا ترغب حقا بالمشاركة فاننا نستطيع اتمامها دونك .

بدت امارات حزن وخيبة على محياه ... لم افهمه ... اعتبرت آن تردده مسألة شخصية . يشرح لي :

ـــ القضية ليست مسألة شخصية يا نادية ، انـــا مستعد بالطبع لتنفيذ المهمة بحذافيرها . لكنني سأقول رايي في اية لحظة حول صلاحيتها وفائدتها . هذا النوع مـــن العمليات تجسيد غير مباشر للبطولات الفردية على حساب البطولات الجماعية ... غداستكتب الصحف اخبارنا ... سترين وجهك على ثلاثة اعمدة او اربعة في الصفحـــات الاولى ... ستكونين بطلة ، اما الذين يموتون في السهول الشمالية و « حران » و « عينتاب » فلن يتكلم عنهم احد .

ـــ نحن بحاجة الى بعد اعلامي ، الا ترى اننا محاصرون في أوروبا الغربية ؟

ـــ الفيتنام بعد عشر سنوات ...

لم ادعه يكمل .

ـــ لا تعد الى الفيتنام وكوبا وغيرهما . لكل ثـــورة ظروفها . نحن نقاتل دون ارض ... دون شريعـــة ... دون قانون .

ـــ وبوليفيا ؟

ـــ ظروفها مختلفة ايضا ... لقد ذبحوا كما تعلم دون ان يهب لنجدتهم احـــد .

ـــ انت ارهابية ممتازة يا نادية ! هـــل فكرت بارواح مئات الناس الذين على متن الطائرة ؟.

شعرت بوخزة الم في داخلي ... لم انم منذ ابلغني

عصام نبأ تغيير حياتي ... لقد درست الموضوع من كافة وجوهه ، وتوقفت طويلا امام قضية الركاب . لكنني عاهدت نفسي بشرف ان ابذل قصارى جهدي لانقاذهم . لماذا لا نقتلعهم قليلا من سأم راحتهم وكلابهم وقططهم المدللة ومجتمعاتهم الاستهلاكية ؟

ـ « أبو مشهور » ... لا يحق لمخلوق في هذه الارض ان يعيش بسلام ، بينما هناك ملايين البشر يموتون تحت الرعب والارهاب . اذا كنت تسمي هذا أرهابا فأنا ارهابية مهنية .

وصلنا الى المطعم دون ان نحسم النقاش ... استقبلتني اسئلة صديقيّ ... تعانقنا وهنأتهما بالسلامة ... تناولنا غداءنا بصمت ، ما عدا كلمات عابرة كانت تخرج من شفاهنا لتبدد جو الصمت الذي ساد المكان . افهمت رفاقي اننا ما نزال بانتظار رفيقين اخرين سيأتيان من « هامبورغ » احدهما فلسطيني طبيب والاخر جزائري . ومن المفترض ان يوجه الرفيق الجزائري العملية حتى لحظة ركوبنا الطائرة حيث تنتهي مسؤوليتها لي انا . خرجنا لتناول قهوتنا في صالة الفندق ... عندما اصبحنا في مواجهة الثلج والريح أحسست ان ضباب ليلة البارحة يختزن نفسه في صدري ... شعرت بنشوة غريبة وجريت راكضة باتجاه الرصيف المقابل غير عابئة ببعض السيارات التي تقطع اشارة النور في تلك اللحظة . رفعت رأسي الى السماء واستقبلت حبات المطر الخفيفة بعيني ... تذكرت ايام ارم ... برودة تشرين ... وازهار اللوز الميتة على أمها .

استقبلتني عاملة الهاتف في الفندق وابلغتني مكالمة

هاتفية تلقتها قبل دقائق من «هامبورغ» : لقد طلب رفيقانا الاتصال بهما فورا . تركت الجميع في الصالة وخرجت اجري باتجاه محطة القطار .. تظاهرت بشراء بعض الواح الشوكولاه وسألت البائعة عن « غرفة تلفون » . اشارت لي بيدها الى اليمين ثم استمرت في حديثها عن الطقس واسعار اللحوم . تلفتّ حولي جيدا باحثة بعيني اذا كان هناك من يتبعني او يراقبني . وعندما تأكدت من خلو المكان دخلت الى « الغرفة » واغلقت الباب ورائي جيدا ثم ادرت قرص الهاتف على دليل « هامبورغ » وطلبت الرقم الذي كنت احفظه في رأسي ... لقد تعودت منذ بداية تدريبي على العمليات الخارجية ان لا احمل معي اي دفتر عناوين او ارقام هواتف مكتوبة ... كل الارقام والعناوين والاسماء احفظها في رأسي ... الانسان وحده في النهاية اكثر قدرة على حل الغاز هذا الكون .

يأتيني صوت الرفيق الجزائري من الطرف الاخر :

ـ هل سقطت ثلوج كثيرة في جنيف ؟

ـ انها تمطر منذ البارحة .

ـ اتشعرون بالبرد ؟

ـ اننا ننتظر مقدمكما ، النزهة حول البحيرة مغرية.

الحديث يجري باللغة الانكليزية ... يحاول الرفيق افهامي انهما قادمان في المساء . اختم المكالمة واضع سماعة الهاتف ... اشعر رأسي يدور قليلا . لقد اقترب موعد التنفيذ . اخرج مسرعة واجري باتجاه الفندق ... اتوقف امام محل بائع صحف واشتري صحف الصباح ثم اقفل

عائدة الى رفاقي الذين ينتظرون ... لم اجدهم في الصالة ... صعدت الى غرفتنا فرأيت ابو مشهور وحيـــدا يقوم ببعض التمارين الرياضية .

ـــ اين صالح وفرحان ؟

ـــ ذهبا الى فندقهما ... يشعران بالتعب قليلا .

ـــ سيأتي رفيقانا هذا المساء .

يفهم ابو مشهور من كلامي ان العملية قد تقرر موعدها بشكل نهائي في صباح الغد .

نجلس معا على حافة السرير ونبدأ في دراسة الخرائط التي نحملها ... خط سير الطائرة اولا ، قدرنا معا نسبة الارتفاع الممكنة وطبيعة الجو الذي سيصادفنا . توقعـت مطبات هوائية فوق السماء الايطالية ، الامر الذي سيضطرنا الى الهبوط الاجباري في مطار « روما » لو ساءت الاحوال الجوية . ولم يكن الهبوط مأمونا ، لا سيما اذا تم الاعلان عن تحويل الطائرة بعد مغادرة جنيف مباشرة . ذكرني «ابو مشهور » بأنه يمكن لنا الطيران على ارتفاع منخفض في الحالات الضرورية لكنني فضلت ان يتم حسم هذه المسألة بعد ظهر اليوم مع صالح ، فهو طيار سابق وادرى منا في هذا المجـــال .

عشرة ايام في جنيف ونحن بانتظار تنفيذ العملية . في اليوم الثالث ارسلت برقية الى عصام اقول فيها :

« كل شيء على ما يرام ، ساضطر لتأخير العملية الجراحية ثلاثة ايام » وكانت هذه العبارة تعني : ان ثمة تأخرا في موعد التنفيذ مدته ثلاث دقائق . في اليوم الخامس ارسلت برقية اخرى اقول فيها :

« نصحني الطبيب ببدء العلاج المقرر . سيكون موعد اول جلسة كهربائية بتاريخ ... » وحددت الموعد بالضبط ... ختمت برقيتي بالعبارات المعهودة « تحياتي لكم جميعا، نحـــن بخير » .

نظرت الى كلمة « بخير » مرسومة على الورق كصورة لجثة متعفنة ... حاولت أن أصدق نفسي : اننا بخير ، تذكرت ، كم نغرق دون وعي منا في « كليشهات » صيـــغ لغوية تجعلنا عبيد كلمات لا معنى حقيقيا لها في حياتنا . سلمت البرقية لعاملة البريد الشقراء وخرجت بسرعة ..

آه كم اشعر بالبرد هذه الليلة .

اين انت يا فرانك ؟

لماذا يهاجمني وطني بهذه القسوة المرعبة ، لماذا ؟ لماذ يهاجمني ضميري وغربتي ورغبتي الاكيدة بالحياة ؟. لماذا قبلت أن اكون مقاتلة في مملكة العمل السري ... يدي على سلاحي وزوايا من الليل تضمني اليها برعب ... اقول لم يكن من بديل ، واتذكر الان ان نضالي السياسي قبـــل التحاقي بهم جعل مني قصور جدل وترف .

(ليلة الخامس من حزيران مرة أخرى ... الحديث الذي لا ينتهي عـــن حقوق العـــمال والفلاحين .. خطب الزعماء وتهديدهم ... الحرب التي تنزف مطرا على « ارم » و « عينتاب » وكل المدن الشبيهة بي ... ابائي الفكريون ... قادتي ... كانوا مثلي عاجزين عـــن الوقوف بيني وبين فجيعتي . عائدة من المستشفى العسكري وانا احرق في رأسي صورة مشوهي النابالم ورائحة جلودهم ... عبثا

احاول ان اتناساهـــم واعود الى هـــدوئي الشبيـــه بهدوء المستفقعات . اذهب الى القائد الذي لا يخطىء ... اقرع بابه ، تفتح لي زوجته الجميلة الغارقة بأحلامها : اريـــد مقابلته !! انه مشغول ، لم ينم البارحة . اقتحم الباب وادخل اليه في مكتبه ... اصرخ في وجهه : الان سنصفي حساباتنا . تعال وحدثني عن مثلكم ، عن نظرياتكـــم ... الان قل لي : بم زودتموني وامثالي لنصدهم عن ابواب « ارم » ؟ ينظر الي بتعال ... بعطف ... بشفقة . نظرة أب الى طفل ضال ... يقول لي وابتسامة صفراء لا تفارق محياه « يا نادية ... انت شاعرة جيدة ومناضلة سيئة ! لقد اعطت الحرب نتائـــج ايجابية ، لقد فضحـــت انظمة البرجوازية الصغيرة وعجزها عن خوض معركتها الوطنية التي عطلت لاجلها كافة المعارك الاخرى ، الطبقيـــة ... الاجتماعية الديمقراطية ... لقد اسقطـــت الحرب مقولة الحزب الواحد ، ليفهم هؤلاء الاغبياء استحالة استمرارهم في الحكم بمفردهم » .

أصرخ في وجهـــه دون وعي : « اغرب عنـــي انت ونظرياتك ! ليس الوقت وقت تشف ... هل كان علينا ان نقبل احتلال نصف وطننا لنثبت صحة نظرياتك ؟ ان « ارم » مهددة بالسقوط » .

دهش لاجابتي وامتقع لونه ... هي المرة الاولى ربما التي يمس فيها قائدنا الذي لا يخطىء . ابدا ما حصل في تاريخ الحزب ان مدت له يد أو اشارت له عين . كان علينا ان نسمعه ونردد ما يتحدث به .

خرجت تائهة في الطرقات التي كانت تمتد دون نهاية ... متعبة « ارم » ... وجهها شاخ زمنا ... اصل قريبا

من زوايا الدفاع ... ألمح احدهم . اجري نحوه : « قل يا علي ماذا سيحصل ؟ » يبتسم ويسألني « أما زلت تكتبين شعرا عن الحب ؟ » .

كم يستيقظ بنا الوحش ؟... في تلك اللحظة احسست دمي يتحول الى هدير من الحقـــد ... احجار الارصفـــة تذكرني بالجماجم التي سقطت لتكون « ارم » و « ارم » مهدده بالاحتلال ... بالفناء .؟

غـــدا يضاجعها جنود الاحتـــلال ... يضاجعونني واخواتي وصديقاتي ... غدا نحمل بأطفال الاحتلال ونتقيأ ثـــمارانا .

أركض باتجـــاه مبنـــى الاذاعـــة ... دون أن اعبأ بالحراس والجنود ، انطلق كالسهم الى الداخل ... اصعد الطوابق الثلاثة لاهثة ... التقي بوجه « بهية » رفيقـــة مناضلة من أحد بلدان الخليج ... تلمح اصفراري ورعبي ... تأخذ بيدي وتقودني الـــى مكتبها ... تخرج حبـــة « فاليوم » وتعطيني اياها : « أهدئي قليلا يا نادية ، منذ دقائق تلقينا نبأ اقترابهم من « ارم » . اطرق براسي الى الارض . كنت اريد ان ادخل الى « الاستديو » واتجه الى العرب المشدودة قلوبهم الى « ارم » ، اقول لهم : يا جبال الطحين واللذة ، ها نحن نحصد بترولكم ونساءكم وثروانكم ... اقول لهم نادوا على ربكم ليدافع عنكم ... صلوا له ... صلوا كثيرا . صلوا له ليحرقكم ويخرج من رمادكم بشرا ... كنت اريد ... ») .

باريس تمطر بشدة ... الطرقات ضيقة والعـــودة الى البيت تخيفني .

كل شيء يبحر في البعد ... كل شيء يبحر في الاغتراب والغربة ، وحتى انت ايها الحبيب البعيد ... ايتها السكين التي مزقتني واعادتني الى آلامي كلها .

الوطن بعيد .. الوطن في العينين . لبنان حزيراني كحزيران ، وسيبقى على مدى التاريخ تلك النقطة السوداء في جباهنا .

جنيف مرة اخـــرى .

اقترب من نقطة التفتيش في المطار ، محاولة أن اخفي في وجهي اي اثر لما يدور في راسي . كانت حقيبة يدي تحتوي على قنبلة مؤقتة ، وعلى جانبي الايسر ، ما بين حاملـــة الجوارب والخصر يستقر مسدس عيار ٦ ملم كاتم للصوت . فوق ثديي الايمن ، وضمن مظروف صغير ثبت الى الجسد ببلاستر ، ثلاث حبات تكفـــي الواحدة منها لقتـــل رجل ، احتفظت بها للحظات الحرجة . انظر الى وجه « ابو مشهور » وهو يخطو امامي هادئا وطبيعيا ، بينما كان صالح ونايف خلفنا يقفان في الطابور الاخر حاملين حقائبهما الصغـــيرة المليئة بالاســـلحة .

يعبر « ابو مشهور » نقطة التفتيش ، ملامحه الشبيهة بملامح سكان المكسيـــك لا توحي لرجـــل البوليس بشيء غريب . يعبر الحاجز واتنفس انا الصعداء ... اقتـــرب بدوري حاملة جـــواز سفري الاميركي ومجموعـــة صحف انكليزية حرصت على شرائها ذلك الصباح ... صوت ما في داخلي يعلو كضجيج الساعات الاخيرة من الزمن ... اخاف ان يلمح الشرطي وطني في راسي ... وطني آلمنفي المحاصر

الذي احمله في عيني كيفما اتجهت في هذه الارض . اخاف ان يلحظ بشرتي السمراء ويسألني : من أية بلاد انـــت ؟ لكنه يبدو غير عابىء بما يدور في راسي ... جواز سفري الاميركي يجعله يومىء لي برأسه دون ان يكلف نفسه وضع الختم على صفحاته ، أعبر انا الاخرى . أرى صالح ونايف قد عبرا قبلي ... نسير متباعدين ... نصعد الطائرة ... ... القي بحقيبة يدي واخرج سيجارة بعد ان استقر قريبا من النافذة . اتوجه بالحديث الى رفيقي :

— ايه ، هل انت مطمئن ؟

يهز رأسه وننفث معا دخان سجائرنا في فضاء الطائرة ... احدق حولي ، الطائرة مجهزة بشكل جيد . فوق مدخل الدرجة الاولى عبارة « ممنوع التدخين » مكتوبة بالانكليزية والعبرية ، وعلى الجدران لوحات تمثل مدن الارض المحتلة ... تمر الدقائق دهرا ... اسمع صوت المضيفة يطلب الينا اطفاء السجائر وشد الاحزمة ... تقلع الطائرة ، تبدو المدينة في حضن ثلوج الليلة الماضية عروسا جميلة غارقة في احلامها ... الوان الزهور الكثيرة المزروعـــة في صدر الثلج حولت المنظر الى جسد نازف بالحقد والدم .

استنجد بالمدن التي احـــب ... استنجـــد بـ « ارم الجميلة » تلك التي علمتني كيف اتنفس واعيش واقاتـــل لاعيش ... وجهها في عتمة الصبح وانا افارقها آلى «حران» لا اجمل من « ارم » وهي ترد حجابها عن وجهها في ساعات الفجر ونحن نضحك معا . مرت عشر دقائـــق تقريبا وانا انظر الى وجه جنيف الغائبة وسط الضباب والريح ...

كحبيب على محطة قطار ... ارى السحاب ... السحاب فقـــط .

تمر بنا المضيفة بكؤوس الشراب ... فيفلت الضباب من اصابعي وفمي ... احاول الامساك بغيمة كثيفـــة في الخارج ... افشل ، اتناول كأسي واسند رأسي الـــى كتف « ابو مشهور » . يلمحنا الراكب في الخلف فيبتسم ... ربما قال لنفسه : يا لهما من عاشقين !.

يمضي ربع الساعة الاول واسمـــع صوت المضيفـــة يرحب بنا باسم قائد الطائرة ، ينبهنا الى دخول الاجـــواء الايطالية ... يذكرنا ان الطيران على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم .. اقتربت لحظة التنفيـــذ .

أمد يدي فاتحسس مسدسي ... تسري قشعريره خفيفة في جسدي . آخذ حقيبة يدي واتجه الى دورة المياه ... عبر الممر اضغط على بطني متظاهرة بأنني اعاني من مغص مفاجيء . يتبعني ابو مشهـــور محاولا مساعدتـــي ونسمع صوت احد الركاب : « من الافضل أن تأخذ شرابا ساخنا وتستريح دون حركة » . نعبر معا مقصورة الدرجة الثانية ، وعندما نصل الى الدرجة الاولى يضغط على يدي بقوة فأفهم ان علي الاتجاه مباشرة الى غرفة القيادة . لحظات صمت قاتل ألقت بظلها علينا وانتظرنا ان يلحق بنا كل من صالح ونايف . تستوقفهما المضيفة في الممر قائلة : « هناك سيدة تعاني من مغص ، انتظرا قليلا حتى تخرج » . لـــم يعيرا ملاحظتها اهتمـــاما واستمرا في طريقهمـــا الينا ... يدخلان عتبة مقصورة الدرجة الاولى ... انطلق انا كالسهم الى « غرفة القيادة » ... اضرب الباب بقدمـــي شاهرة مسدسي باليمنى بينما كانت يـــدي اليسرى تضغـــط على

مسمار الامان للقنبلة المؤقتة ، أنطق عبارتي التي رددتهـا ثلاث مرات فيما بعد .

انا مقاتلة من .... » وذكرت اسم المنظمة التي انتمي اليها ، مضيفة :

الطائرة تحت امرتي ، اتجه بنا الى « ارم » مارا بسماء الارض المحتلة ، حركة سيرك تكون روما ، اثينا ، نيقوسيا ، اية مخالفة منك ستجعلني افجر الطائرة » .

فوجىء الطيار بنا ، وبدا وجهه كالشمع بينما حاول مساعدة أن يقاوم ، فتولى « ابو مشهور » امره وسيطر عليه ... ثم شد وثاقه الى المقعد . صالح ونايف أحتلا مقصورة الدرجة الاولى ، ثم توجها للركاب بنداء يطلب اليهـم عدم التحرك من اماكنهم . ثم شرحا باللغة الانكليزية والفرنسيه الهدف من العمليـة .

« لا نريد بكم شرا ، نتمنى أن لا نضطر للجوء الـى العنف ، الهدف من عمليتنا هو : تعريفكم وتعريف العالم بقضيتنا » . بعد ذلك وزعا بيانا اعددناه في جنيف ليلة الرحيل شرحنا فيه الكثير عن تاريخ القضية الفلسطينية .

متجمدة امام لوحـة الرادار ورأس الطيـار امـام مسدسي ... شيء من الرغبة بالحياة يداعب مخيلتي ... الاوامر واضحة في رأسي : عدم اللجوء الى تفجير الطائرة تحت أي ظرف . محاولة انقاذ حياة الركاب بأي ثمن .

أعطيت شروطي للقبطان بوضوح :

« الهدف من عمليتنا هو :

١ ـ اطلاق سراح احدى المناضلات التي عذبت حتى الجنون في نابلس .

٢ ــ اطلاق سراح اربعة رفاق لنا قبض عليهم اثناء احدى العمليات في السهول الشمالية .

٣ ــ اطلاق سراح خمسة فتيان اعتقلوا مؤخرا في مظاهرات القدس » .

هز الطيار راسه بصمت ، بعد دقائق سألني : اذا كنت ارغب ان ينهي شروطه للارض في مطار روما .

هززت راسي بالايجاب واضفت : « شريطة عدم الهبوط » .

فوق روما الغارقة في احضان بحيراتها لاحظت ان الطائرة قد بدأت بالانخفاض ، وبدت على لوحة الرادار اشارات تدل على أننا نطير على ارتفاع منخفض جدا ... فهمت اللعبة وقربت مسدسي اكثر من رأس القبطان :

« اسمع ، لسنا اطفالا ، ارسل بالشروط فقط معلنا عن تغيير اتجاهك . لن اتردد ابدا في قتلك ... معنا من يقوم بقيادة الطائرة حتى هدفها » .

هز راسه مجيبا بالتأكيد وارسل بنداء الى الارض يطلب فيه الى حكومته قبول شروطنا . كانت قشعريرة ما تسري في جسدي ... عيناي تلاحقان لوحة القيادة دون توقف .. الموت في تلك اللحظة لم يكن بعيدا وتمنيت ان تنتهي الحرب ... تمنيت ان يقف الزمن واجد نفسي تحت شجرة خضراء من اشجار الزيتون في ضواحي مدينتي الساحلية افترش الارض واستقبل السماء بعيني . نظرت الى وجه رفيقي الهادىء الصامت ولمحت بعض الحلم في عينيه .

ظلت الطائرة تدور ربع ساعة فوق مطار روما ونحن ننتظر اجابة غرفة القيادة في المطار ... كنت قد اعطيتهم مهلة عشرين دقيقة لاستقبال الرد . بعد ربع ساعة ألتقطت شيفرة فهمت منها : ان هنـــاك صعوبات تمنـــع الاتصال بسفارة ألعدو ... لقد رفضوا اذا . ابلغت الطيار بالاتجاه الى أثينا دون ان ابلغ غرفة قيادة مطار روما بذلك . لكنني اكدت عليهم : ان الشروط ستكون نفسها ، من اي مطار نهبـــط فيه .

مرت اللحظات بطيئة ... الدقيقة دهر ... الثانية عمر ... الصمت المطلق يسيطر على الطائرة ، صمت جعلني اتخيل نفسي في لحظات خشوع الهي كتلك التي تسبـــق المـــوت .

قاس ان يضطر الانسان للقتل ! ولكن كم هو مذل ومهين أن يقتل . لماذا كانت الحرب ؟ لماذا الاسلحة ؟ لماذا المـــوت ؟

لم أذهب بأسئلتي بعيدا ... تذكـــرت ان المليـــون ونصف المليون من اللاجئين يموتون من الجوع احيانا وليس من ألحرب ... يرتجفون تحت الخيام في الليالي الماطرة وتلد نساؤهم خوفا مـــن الموت . تذكـــرت معنـــى ان تكون فلسطينيا ... مسألة في غاية التعقيد لان ذلك يعنـــي : ان تعيش مشردا ، او ان تضطر للقتل .

تنفست بعمق ويدي على القنبلة ... بدونا في السماء سفينة ضائعة لا شواطىء ترسو عليها ولا امل ننتظره ... ارواح مئة وخمسين راكبا في عنقي ، وعلي ان افكر بحياتهم قبل كل شيء . يقرب ابو مشهور وجهه الي في تلك اللحظة:

ـ اذا عدنا سالمين سأظل احبك .

تنمحي المسافات واشعر بالزمن نقطة سوداء مضيئة تنام في ذاكرة اللحظة .

رددت : وان عدنا سالمين سأظل احبك .

يا الهي ! ما افظع ان نكون عاشقين في لحظات الموت ... حياتنا في تلك الدقائق الرهيبة كانت رهينة اي خطأ نرتكبه نحن او الطيارون او الركاب ... اين الاباء والقادة والمنظرون ليعيشوا هذه اللحظات الرهيبة ويضربوا عن خطبهم الرنانة ؟ ابائي السابقون ... ان قادتي اباء عاقرون وعاجزون عن الانجاب . اتذكر ان الموت ليس ما ننتظره ، لكن الموت ما نعيشه بانتظار الموت . وجه الطيار جامد يبدو في لوحة الرادار كتلك الوجوه التي نمر بها في ايامنا العادية دون ان تستوقفنا ، الى ان يكون اصطدام سيارة او سقوط قنبلة ، فنجد انفسنا نعبر اليها بمبالغة غريبة . لست ادري لماذا مرت بي لحظات شعرت فيها انني قريبة من وجه الطيار ... كان في الاربعين من عمره تقريبا ، يحمل ملامحنا نحن سكان الشرق ... يحمل ايضا الكبرياء نفسها التي تطبع انوفنا وتجعل منا تحت ضوء الشمس اولئك البشر الذين يحلمون كثيرا . رغبة ما في داخلي كانت تدفع بي ان اتحدث اليه ، ان اقول له : « اسمع ، اظن انك ولدت في فلسطين ولاب يهودي فلسطيني ! » هناك نبت ، هناك زرع اطفاله ، هناك تعرف مثلنا على ليالي الجوع والعطش ...

قبل ان ندخل الاجواء اليونانية ، التفت الطيار الي وحدق طويلا في ملامحي قبل ان يقول لي بالعربية :

ـ الطائرة ستدخل الاجواء اليونانية ... اتفضلين ان نطرح شروطكم من جديد على مطار اثينا ؟ ام نستمر الى نيقوسيـــا ؟

مرت بي لحظة تردد حاولت ان اخفيها عنه فقلت له :

ـ نيقوسيا ، عليك بالاتجاه مباشرة الى نيقوسيا .

استمرت الطائرة في خط سيرها ، وقبـــل الهبوط في مطار نيقوسيا جاءني صالح في غرفة القيادة وابلغني ان هناك سيدة تعاني من دوران الجو . طلبت اليه ان يعطيها بعض الادوية التي كنا نحتفظ بها لمثل هذه الحالات ... اخذ حقيبة يدي التي كانت ملقاة على الارض وفتحهـــا ثم اخرج علبة الادوية وترك غرفة القيادة مسرعا . في تلـــك اللحظة كانت الطائرة تحط علـــى ارض مطـــار نيقوسيا ، فتوجهت بنداء للركاب اطلب اليهم عدم التحرك من اماكنهم وشـــد الاحزمة .

عدت من جديد لمراقبة جهاز الرادار ، بينما كان « ابو مشهور » يقف خلف الطيار ويده مشدودة على المسدس .

احسست باليأس . مرة اخرى ترفض سلطات العدو الاستجابة لمطالبنا ... كانت المسائل واضحة ، وعلي ان اتدبر قضية هبوطنا في مطار « ارم » . بدا وجه الطيار مثقلا بالارهاق ، وفكرت باستبداله بـ « صالح » . لكنني صرفت الذهن عن ذلك في اخر دقيقة خوفا مـــن اختلال تـــوازن العملية ... كان مطار نيقوسيا تحت الشمس صغيرا كراحة الكف تحيط به المنازل ذات الطابق الواحد ، والحـــدائق الصغيرة تمتد على جانبيها في توازن هندسي رائع . وجه

المتوسط يطل عليا حارا وصافيا ... يغسل اقدام المدينة بدمه الازرق بينما تلوح من بعيد ملامح المدن العربية .

علا صوت الركاب داخـــل الطائرة وبـــدات درجات الحرارة بالارتفاع ... صيحات تنطلق من كل زاوية تطلب الينا السماح لها بالنزول ... كنا جميعا سجناء تلك اللحظة. نحن والركاب وطاقم الطائرة . طلبت الى الطيار ان يتجه بنا الى « ارم » عن طريق « اللد » . شك في داخلي ان لا تقبل سلطات « ارم » الهبوط على اراضيها ... ان لا تجعل ارضها مسرحا لاول واغرب عملية تحويل طائرة تقوم بها المقاومة الفلسطينية . حتى ايام ، كنا بالنسبة للجميع مزحة تاريخية طال وقتها أم قصر ، ستنتهي كما بدات وكما انتهت ثورات صغيرة قبلها ما بين عامي ١٩٣٦ ــ ١٩٤٨ في الارض المحتلـــة .

ــ مر بنا في سماء الارض المحتلة .

تردد قليلا ... اكـــدت باصرار ... ادار المحرك واقلعنا من جديد . خفت الاصوات وعادت السكينة تسيطر على الجو ... سكينة محملة بالانتظار والرغبة بالخلاص .

تبدو بيوت الارض المحتلة صغيرة ومتلاصقـــة ... الشريط الاخضر الساحلي يستحم في احضـــان البحر بهدوء ... هناك ولد ابو مشهور ... هناك يسكن صـــديقي « محمود » يكتب شعره على وجه البحر والشجر وجبال الكرمـــل ...

« هذه حيفا » قالها الطيار دون ان يبدو عليه اي اثر من الانفعال . تذكرت وجه « محمود » يوم مؤتمر «الشباب» في بلغراد وانا اعاتبه لموافقته على الخروج ضمن الوفـــد

« الاسرائيلي الرسمي » ، أمطرني خيبة والما . خفضت راسي حتى لا يلمح الطيار موجات الحزن التي تعبره في تلك اللحظة ... « لقد كتب علينا يا محمود ان نمر بكم والموت رفيق لنا » .

التقيتـــه بعد ذلـــك في باريس عام ١٩٧٣ عائدا مـــن موسكو . ذكرته بلقائنا في بلغراد . كانت حبات مطر خفيفة تسقط على جبيني والصاعقة التي تهاجمني أبدا في المطـــر جعلت مني أرملة حزن شفافة حتى الاحتراق . كنا نعبـــر معا ساحة « السان ميشيل » . وفي اول مقهى صادفنا القيت بنفسي على المقعد ولم احدثه عن تلك التحية اليتيمة التي ارسلتها له عبر سماء الارض المحتلـــة ومن طائرة تعبر بنا الى قلب الحزن العربي .

بعد عشر دقائق تقريبا من الاقلاع من مطار نيقوسيا سمعت الطيار يتكلم العبرية مـــع الارض ... طلب اليـــه « ابو مشهور » بالعبرية ايضا ـــ التي كان يتقنها ـــ ان ينبه سلطات كافة المطارات التي سنمر بها الى خطر الاقتراب منـــا .

ـــ « ان اية طائرة تقترب منا ستكون سببا في تفجير طائرتنا بركابها » . دهش الطيار قليلا لادراكه ان رفيقي يتكلم العبرية ... سمعته يردد بالانكليزية العبارات التي طلب اليه « ابو مشهور » ترديدها .. في تلك اللحظة كانت طائرتان من طراز ميراج تتركان الفضاء الذي حولنا وتتجهان الى الارض ... عندما ادركت اللعبة التي حاول الطيار ان يقوم بها قلـــت له :

ـــ اسمع ، ان اية محاولة لتضليلنا ستكلفك حياتك .

سيؤلمني كثيراً ان افجر الطائرة ... لكنني لن اتوانى عن ذلك اذا اقتضى الامر . ارجو ان تكون هذه القضية واضحة في راسك . اتجه الى « ارم » ونبه مطاراتكم الى خطورة اللحاق بنا واعاقتنا .

تلك اللحظة ــ العمر ... تلــك اللحظات السابقة واللاحقة بالموت ، لا شيء يعادل اغنية حماسية يرددهــا جنود يتجهون الى ساحة المعركة ، مشكلتنا نحن مقاتلــي مملكة العمل السري اننا لا نستطيع آن نهمس بأصواتنا ...

بدا البحر بحارا كثيرة ومتراكمة منذ الزمن . لمحت ، او خيل الي اني المح الموجات تنهار علــى الشاطىء ... تذكرت منظراً من فيلم « المحاكمة » « لويلز » حيث الموسيقى تلد صورا نواتها الصمت . كم انا عربية في تلك اللحظة ! لمحت وجه « محمود » على البحر والشجر ، وكان الفضاء كئيبا . تلك الكآبة المدهشة التي يحني المرء راسه لها ... هاجمتني فكرة الموت مرة اخرى ، تذكرت أن المرء ثوري لانه يحب الحياة ، ولانه يحب الحياة يتعرض للموت ، ولانه يتعرض للموت فان المجردات تأخذ عنده اشــكالا متجسدة تبعده عن الرهبنة الجسدية ... بل تجعله من اكبر اعداء « الناصري » في رفضه قبلة المجدلية لقدميه بتسام كاشــف باسم الله . وقنعت بأن اختيار الموت طوعيا مسألة غير معقولة ... يجب أصطناع اسباب غير معقولة له ...

تدخل الطائرة اجواء « ارم » واراها من خلف اشجار الغابات جميلة ... أراها تفتح عينيها وصدرها لي ، انا التي هجرتها دون وداع ... اتوجه بندائي الى قيادة المطار اطلب اليهم قبول هبوطنا ويأتيني الجواب بالرفض ... ثم

يكن لدينا من خيار . فقد انتهى الوقود وحالة الركاب لا تسمح لنا ابدا بمتابعة الرحلة آلى اي مكان اخر ... انذرت سلطات المطار بأنني سألجأ للهبوط الاجباري ، وجاءنـــي الجواب بالرفض . طلبت الى صالح ان يساعد الركاب على شد أحزمتهم ويهيء سلاحه ... علينا آن نتم العملية بأسرع ما يمكن وبأقل ضرر . نظرت عبر النافذة الى باحة المطار فلمحت سيارتي « جيب » تقتربان من مدرج هبوطنا ... كررت رجائي للسلطات ان تمنعهما من الاقتراب منا ، هددت بتفجير الطائرة ... غابـــت السيارتان عـــن المدرج وبدت المسافة آمامنا واسعة وكافية لاتمام الهبوط .

تم كل شيء بسرعة ، خمس دقائق فقط كنت بعدها مع رفاقي نترك الطائرة بعد ان افرغت من ركابها وزرعت بالقنابل المؤقتة ... وما كدنا نصل آلى باب المطار حتى سمعنا دويا هائلا فانبطحنا على الارض ومن خلفنا بدت اعمدة الدخان سوداء ... سوداء كلون المحيط .

آه لو يعود زمن الكـــرز !

اشعر بالتعب ... الليل في اخره ... المقهى خلفي يغلق ابوابه وصوت اقدامي على الرصيف اشبـــه بصوت حوافر حصان قلق ... هذه باريس العجوز وقد نامت عبر سهر طويل . النوافذ مغلقـــة ... الابـــواب مغلقة ... ارصفـــة الوحدة هـــي وطنـــي ، واصدقائـــي ينعمـــون الان بدفء فـــراشهـــم واجســـاد زوجاتهـــم المـــدللات . البارحة التقيت « محمد » السفير الغاضب ابدا على ارصفة مقهى في « الشانزليزيه » . تحدثنا عن بلاده التـــي تغط بالنوم ... عن عذابه كمثقف بل عن غربتنا جميعا عـــن

الواقع العربي الذي اصبح ينكرنا وننكره . مازحت محمد قائلة :

ـــ ما رأيك ان نعلنك ملكا علينـــا نحن مجموعـــة الصعاليك ؟ سيكون دمك مهدوراً في كل زاوية من العالـــم العربـــي .

رد علي بجدية مطلقة :

ـــ ستكونين وريثتي اذا قرروا اعدامي !

ـــ لماذا اعدامك مرة واحدة ، سيتسلون بتقطيـــع اطرافك ويشربون نخب نصرهم !

ضحك محمد وبدل الحديث :

ـــ اين انت الان ؟!

وقفت على قدمي وقلت له :

ـــ كما ترى ، على رصيف من ارصفة المنفى ...

كنت بحاجة للبكاء في تلك اللحظة ، وخفت ان اضـــم راسي الى صدره ونبكي معا .

فرانك ... اشعر بالموت

فرانك ... اشعر بالتعب يسري في اوصالي جميعها .

فرانك... باريس جميلة في ظل الصمت وانت بعيد...

أتذكرك يا فرانك ، لحظة فراقنا في المطار، وانت تنتظر الرحيل الى القارة الاخرى ... لقد انحنيت علي هامســـا وقلت لـــي :

ـــ انتظريني يا نادية ، ولا تكوني مخلصة لي ، واذا ما شعرت بحاجتك الى النسيان اذهبي الى الصين واغسلي جســـدك فيه .

هل ننسى ؟ أحقا يمكن لنا ذلك ؟ اسمع دوي القنابل في صمت الليل ... ارتجف ... تتحول المدينة الى مطارات واجواء محملة بالضباب ... ارى طائرات فخمة تقـــودها

نساء مثلي في هذه الساعة من الليل ... اسمع الانفجارات ارى وجهك ... وجه « ابو مشهور » مغمورا بالحـــزن مشربا بالاسى ... البرد يعذبني يا شوقي اليك يا شوقي لعينيك الشبيهتين بالبحر ... يا وجهك . آه لماذا تهاجمنا وجوه الاحباء في الغربة ؟ الا يكفينا عذاب فقدانهم ؟.

اشد اوراقي الى صدري ... اتجه الى بيتي ... امد يدي فأتحسس مكان الرصاصة التي اطلقت على جســـدي يوم اخر عملية قمت بها . لقد نجحوا يومها في اصـــابتي وقادوني مكبلة الى احد سجون المانيا الغربية حيث امضيت ثلاثة اشهر تحت التعذيب ... تسري الكهرباء في جسدي فتضيء عيني ... يمسكون بجديلتي الطويلة ويضربون راسي الى الحائط في محاولة لاجباري على الاعتراف باسم منظـــم العمليات التي اقوم بها . يومها استنجدت بكل الشـــهداء الذين عرفتهم ، وخطرت لي صورة عمار بن ياسر فوق رمال مكة وصخرة كبيرة على بطنه . لقد رفض عمار أن يلفظ اسلامه ... ساعدتني الصورة المشرقة للانسان ان احتمل بشكل افضل حتى أتيح لرفاق لي بعد حملة اعلامية واسعة وعملية جريئة ان يخلصوني من اقبية السجن .

تقول : انسي وتدري ان النسيان صعب .

لن ، احبك ، اوه لم اعد احبك . تدري ، ان هذه نهاية العالم ... لقد تبدل الزمن ... أقول احبك ... يرتد صوتي الى حنجرتي وحيدا ودون صدى ، بعده مـــا احببت احدا . كنت أنتحر في اجساد الرجال باحثة عـــن الســـلام .

« ابو مشـهـــور »

(عتمة الليل في سهول الشمال تلف كـــل شيء ...

قبلني ومضى ولم يعد ابدا . ما من عائد ليقـــول لي انه يعيش ... ما زلت أنتظر ارملة صبر واحتمال ومحبة ... ما زلت انتظر يا عينيه السوداوين ويا صدره العريض ... يا كفيه المعفرتين بالتراب ... يا وجهه الغابي ... يا دمه انا انتظـــر) .

ها انذا رصاصة مثخنة بالاسى ، أعيش لان الموت ليس ملكي ... آكل ، أشرب انام ... احبك ؟! احاول ان احبك وانتظر عودته . عبر المحطات والانتظار وساعات السفر اردد اسمه اينما كنت .

بيتك في « ساحة دوفين » ونحن نقاتل برد الشتاء ونتحد بجسد ينافي وجه العتمة ... ترفع راسك الي :

ـــ كنت زوجـــة ؟

أبتسم وأنا أحاول اعادة صورة ابنتك الى مكانها على الطاولة ، ولا اجيب .

ـــ لماذا لا تجيبين ؟ ذكر انك قلت لي ذلك ذات يوم ... يوم التقينا في مقهى سان كلود .

شعاع الصبح يتسلل عبر النوافذ حاملا معه رائحة السين ... اذار جنية تنوح في الخارج . وفي ذلك المساء ادخل عامي التاسع والعشرين .

ـــ لقد كنت ... لكنني نسيت .

ـــ مجنونة ! كيف ينسى الانسان مسألة كهذه ، هل كنت تحبينـــه ؟

ـــ كنت أحيا معه واحاول ان انسى .

ـــ تنسين ... لماذا ترغبين ابدا في النسيان ؟ هل

كنت من الحريم ... هل اجبرت على الزواج به ؟

ـــ ابدأ ، كنت الزوجة الاولى والوحيدة ، لم يجبرني احد ، لقد اخترته ملجأ ... جلادا ... سجنا كما تشاء .

تصمت وتتبدد اللحظة ... تعود لاسئلتك :

ـــ هل تزوجت صغيرة ؟... تعالى الى جانبي وحدثيني قليلا عن حياتك . انا لا اعرف عنك شيئا حتى الان .

ـــ ولماذا تريد ان تعرف عني شيئا ؟ الا يكفي انني معك في الحاضر ؟ دعك من ماضي !

عام كامل مضى ونحن معا نكتشف الزمن وجسدينا والرغبة في النسيان . في مثل ذلك اليوم من العام الماضي التقينا في قاعة المحاضرات في الجامعة ... في مثل ذلك اليوم ابحرنا الى الحياة دون مرأس ودون اشرعة ... ما زالت مراكبنا تسير على هدى الرياح ولا نعرف لنا خليجا نأوي اليه . مركبان تائهان في بحر شديد الملوحة . ان سقطنا ابتلعنا سمك القرش الذي يفتح عيونه علينا بحدة . وان نجونا سنشرب ماء البحر المالح ...

حدثتك عن ابي طويلا ، عن دمي المعتق بالاصل والاشجار ... عن الكذبة الابدية التي عمدوني بها ... حدثتك عن وجه امي الذي لا ينقطع عن الصلاة . أمي تصلي بكل اعضائها ... وجهها صلاة دائمة ورب امي يختلف كثيرا عن الالهة . انه رحيم ومحب وحنون . يسكن في الغابات وبين امواج البحر ... يطعم الاطفال ولا يعذبهم، كم هي مطمئنة امي !

لم احدثك ابدا عن ماضي انا ... عن مشاركتي في النضال الفلسطيني ... لم اقل ابدا انني جرح دائم . لم

اقل ابدا ان النسيان في اجساد الرجال غدا لذتي التي ابحث عنها . كنت اهرب منك اليك ... من ماضي اليك ... من باريس والغربة آليك . ولقد عمدتك وطنا مؤقتا بانتظار الوطـــن .

اقترب من طرف سريرك ... اقرب جبيني من وجهك ... اقبلك ثم أتجه الى مكتبك ... أبدأ رسالة طويلة الى امي واسمع صوتك مرة اخرى :

ـــ هل نسيت زوجك ؟

ـــ فرانك ! كف عن الاسئلة ! لقد نسيت كل شيء ! لقد صادفت رجلا بالامس في « الكوبول » وحاولت أن اتذكر اين تعرفت الى وجهه ... اخيرا عرفت: في السرير ... كان زوجي الســـابق !

اسمع صوتك مرتعشا :

ـــ كم انت مخيفة !

أتوقف عن كتابة الرسالة وانصرف الى قراءة كتاب مفتوح امامي ... اغرق في الجمل والكلمات ولا أعي شيئا ... اقف ، اتجه الى النافذة ... افتـــح مصراعيها ... أردد على مسمعك عبارات تافهة لا معنى لها . تدرك انني رحلت الى عالم اللامبالاة باللحظـــة ... توقـــف اسئلتك ونغرق معا في الصمت .

لو أقررت ضعفي في تلك اللحظة لقلت لك : انني قاتلت واضطررت للانسحاب من ساحة المعركة بعد ان اثخنتني جراحي . لكن رطوبة الصباح جعلتني اتنفس بعمق متذكرة اقبية التعذيـــب في السجن .

ـــ فرانك ... انا هنا ، لانني غير قادرة على ان اكون هنـــاك !

كنت قد اقتربت مني ... شددت رأسي الى صدرك ومسحت على شعري قائلا :

ـــ ايتها الديماغوجية ... هل ظننـــت انك اضفت لمعلوماتي عنك شيئا ؟

واردفت مازحا :

ـــ حقا ، لماذا ابحث عن ماضيك ؟ يكفي انك هنا الان ولا اظن انك « ارهابية مدربة » جاءت لتحويل الطائرات .

طعنتني عبارتك الاخيرة في الصميم ... في العمق... ادرت وجهي الى الجدار حتى لا تلاحظ الدم الذي قفز الى خدّي ... حاولت ان اضحك بصوت مرتفع لاغطي على لحظة الاكتشاف تلك ...

مرة اخرى في بيتك بـ « ساحة دوفين » .

تمد يدك الى شعري المحلول على كتفي محملا برذاذ المطر وتسألنـــي :

ـــ ماذا تريدين مني ، هل تحبينني حقا ؟

واجيبك بهدوء :

ـــ لا ادري ، ربما رفقة طريق ...

يتحول وجهك الى سحابة حزن :

ـــ واذا احببنك ايتها العنيدة ؟

ـــ تأتي معي الى الشرق ... ما رأيك ان نفجر ثورة على طريقتك وطريقة صاحبك الذي مات بين الغابات ؟

تحول وجهك الى غضب وصرخت بي :

ـــ مجنونة ، أما زلت حقا تعتقدين بكتاباتي الاولى ؟

ذهلت للمفاجـــأة :

ـــ طبعا ، واظهر انها ستبقـــى الشيء الوحيد الصالح لتصحيح رعونة هذا العصر !

ـــ ولكنني انكرتها بعد تجربتي في الكونغو ... لا يجوز ان نرسل بالبشر آلى الموت ... هذا ابتزاز رخيص لحياة البشر ... البطولة شيء تافه . التاريخ لا يصنع في فرن .. التاريخ هو الاستمـــرار والمراحل الطبيعية . لا يمكن ان نخلق رجلا في عشر سنوات ، لكننا نقتل رجلا برصاصة ...

لم ادعك تتم جملتك ... اشعر بواجب الحساب ... اقـــول لك :

ـــ عن اي تاريخ تتحدث يا فرانك ؟ التاريخ في اوروبا مسألة آخر ى، ثورتكم البرجوازية اخر ثورة في تاريخكم ، وعلينا ان نصنع ثورتنا في العالم الثالث . علينا آن نلوي عنق التاريـــخ !

تنفجر بغضب حقيقي .

ـــ التاريخ لا يلوى من عنقه ... التاريخ يأخذ مجراه. لقد حاولتم في الشرق ، فماذا كانت النتيجة ؟ هل تعتقدين ان وضع مسدس في رأس طيار واجباره على تغيير آتجاهه ... ارهاب مئات الارواح ... القتل ـــ كـــل هذا يغير الظروف ويبدل التاريخ ؟ لقد تحول ثواركم الى قراصنـــة جـــو !.

اشعر بالتحـــدي ... بالطعنـــات في الصميم ... وبالرغم من انني مقتنعة بأنك لا تعرف شيئا عن ماضي تعود الي روح المقاتلة واحس انك تعنيني .

ـــ انك تعني الفلسطينيين من غير شك !

ـــ نعم ، تعرفين رأيي جيداً في اعمالهم . الفلسطينيون وغيرهم ...

ـــ دعنا من هذا النقاش يا فرانك ! لا يحق لبشر مثلنا يحيون في السلام والرفاهية فرض قوانينهم وقيمهم على شعب دون أرض .

عندما تهم بالرد علي ، أنفجر انا الاخرى بحقد لا أدري من اين جاءني في تلك اللحظة :

ـــ اسمع يا سيد فرانك ! انت هنا في بلادك ، ودعت نضالك وانتهى بك الامر الى سياسي محترف . انتم الاوروبيين جعلتم من الشعب الفلسطيني عاهرة تتسكع على ابواب المؤسسات الدولية مطالبة برغيفها وحقها . لماذا لا يحق لهم ان يصنعوا من عالمكم بيوت دعارة ؟

تحولت الى مجنون :

ـــ اميركا اللاتينية خير نموذج على فشل « البؤر الثورية » . آن عليكم بالانتظار . اما انا فلن اعود مرة اخرى الى تلك التجربة التي دفعت ثمنها غاليا . خمس سنوات من عمري وراسي الى الجدار . انا فرنسي وسأعيش في فرنسا واناضل لتغيير واقعي الفرنسي .

ـــ كم انت فخور بفرنسيتك يا عزيزي فرانك !

ـــ جدا .

ـــ وحرب الجزائر ... قصف دمشق ... مذابح الفيتنام . حقا انك لثوري رائع !

ـــ لقد كنت في الماضي اخجل من اصلي ، خاصة عندما عرفت ان بلادي قد عذبت واضطهدت شعوبا اخرى . اما

الان فانني اشعر بالفخر لانتمائي اليها ... انها تحترم حرية الانسان .

صمت مهاجر من كوكب مجهول يخيم على راسينا . يفرز جسدينا الاصمين ... يقرر برومانسية عجيبة ان يبعدنا عن ماضينا ... نقتلع عيوننا من ذلك الماضي ، فكلانا يكره الحديث عنه . يلعب الصمت اوهاما ويعطيني الاحساس بالسعة . يتمزق النهار والليل في صدرينا ، ويبتعد الى ساحات المجهول . اوه ، لو نعود معا الى باريس بعد ان يبيض شعرنا حيث امام سوق « الهال » القديم وفي بار « مارلين » نحتسي كأسي براندي ونشتم الحضارة الانسانية كلها .

اسمع رنين الهاتف كنباح جرو جائع ، من في هذه الساعة المبكرة من النهار ؟ اسرع اليه ويأتيني صوت « اوليفييه » :

ـ هل استطيع ان اتكلم مع فرانك ؟

قبل ان اجيبه يتابع :

ـ نادية ، اليس كذلك ؟ هل عرفتني ؟

كدت اقول له : نعم عرفتك يا صاحب الملايين ... يا صاحب القصور والثروات ، عرفتك ... هل هناك من صفقة ثورية جديدة ؟. لكنني ظللت صامتة وأومأت براسي لك لتأخذ السماعة .

استمر في ارتداء ملابسي ، واسمعك من غرفة النوم تذبح ماضيك وتصلبه على جدران معابد بوذية حيث يخفض المصلون رؤوسهم ، بينما الاله في مكان ما من السماء ينظر اليهم ضاحكا ... انت المعبد والالهة والصلاة

والماضي المغدور ... صدر الرفيق المطعون في ليلة حارة ... اشجار الموز الحارقة الخضرة .

ـــ نعم يا اوليفيه ، ما زلت اكتب مذكراتي عن فترة السجـــن .

ثم تضـــيف :

ـــ نادية بخير ، لقد بدأت تهتم قليلا بتاريخ الزنوج .

يتقطع الحديث وتسود فترات صمت من جانبك ... اتذكر وجه اوليفيه المتورد كوجه اثرياء الحرب ... ضحكته تلك التي اثارت في داخلي الرغبة بالتحدي والصراخ يـوم التقينا معا في مطعم « تور دارجنت » . قدمته لي وضحكة تعلو وجهـــك :

ـــ اوليفييه الاشتراكي الراسمالي بامتياز !

هززت رأسي يومها ولم يخطر ببالي ان اسألك : كيف يمكن ان يكون المرء اشتراكيا وراسماليا بامتياز . فلم تكن المراة ـــ الشجرة قد استيقظت بعد . كنا ما نزال في بداية علاقتنا ورغبة النسيان تطوح بي كحصان جامح . في المرة التالية ، وكان ذلك في بيت « كلارا » . الاصدقاء حولنا ... ثوار محترفون ... كتاب وشعراء يتحدثون عن كـــل شيء الا عن الشعر ... سيدات جميلات تفوح مـــن جلودهن رائحة العطر وعفن الحضارة . كنت بينكم كلحن شاذ ونافر، اغرق في الصمت واتأمل وجوهكـــم المطمئنة لمصير مـــدن الرفاه واللا مسؤولية . قال لي اوليفيه : « ما بك قلقة لمصير ثوار ايرلندا ؟ » وكنت احدثه عـــن فلسطين . ضغطـــت « كلارا » على يدي وهي تضحك بصوتها الشبيه بقـــرع طبول افريقية :

ـ انه مخرج سينمائي مجنون وصاحب اكبر مصانع للزوارق الحربيـة !

لم استمر في النقاش ، بل ازددت التصاقا بك ... واكتشفت أن اصحاب مصانع الحـرب يحبـون الرسـم والموسيقى وعشرة الثوار المتقاعدين امثالك .

يومها لم يكن ذلك يعنينـي ، كنت راغبة بالنسيان والحصان يطوح بي في وديان الصمت .

في طريق عودتنا من بيت « كلارا » قلت لك :

ـ لا افهمك ابدا ، كيف يمكن لثوري مثلك ان يحتمل صحبة تاجر حرب ؟ انك مصالح من الدرجة الاولى .

وبلامبالاة عرفتها فيك اجبتني :

ـ هل تعتقدين أن علي ان اعاشر الثوار فحسب ؟ انني لم استطع ابدا كسب ثقتهم ... لقد رفضوني كمثقف!

اوليفييه على الطرف الاخر يحدثك ، ربما عن مشاريع جديدة تتناول زوارقه وحروب الارض كلها . عن افلامه .. عن موسيقاه ... وعن والده الثري حتى التخمة . ادخل مكتبك ، تقع عيناي عليك خلف الطاولة وراسـك بين يديك وسماعة الهاتف تنفث دخانها في فضاء المكان . التقط عباراتك:

ـ في نهاية الاسبوع ، لا ... لا ... الكتاب سيصدر في الشهر القادم ... ماذا ؟.. حول تجربتي في الكونغو ... ايام السجن ... اوه ، ابدا الربح قليل ، ودار النشر لم تكن معي كما يجب ... ماذا ؟ ستقضي عطلة نهايـة الاسبوع على يختك ... سآتي مع نادية ، ولكن حذار من النقاش السياسي . لم تنس بعد لقاءكما في بيت « كلارا » .. لا ، يا عزيزي اوليفييه ، انها تلميذة قديمـة لي ... يسـارية متطرفة ...

اجلس على مقعد مقابـل مكتبك احدق فيـك ... تتسمر عيناي على الوجه ... والراس المنكس بين اليدين ... الصورة القديمة لمناضل سجين في بلاد كانت الثـورة فيها على الابواب . صورتك تلك يوم قبض عليك وانـت تودع رفاقك في الغابات ... صورتك في سـاحة المحكمة وحولك محاموك الذين توافدوا من كل انحاء العالم للدفاع عنك ... كنت الرمز واللحظة الحقيقية للموت ... الصورة هناك على الجدار ، ووجهك نقي كوجه طفل ... الصورة امامي وراء مكتبك وصفقة لقائك مع اكبر مستغلي الطبقات التي دافعت عنها وتكلمت طويلا باسمها . اغمض عينـي يا فرانك ، وارفض الصورة الحقيقية . اتذكر ليلة خرجنا متظاهرين لاجلك نطلب بأصوات يمزقها الايمان والحـب ان يسمح لك بالدفاع عن نفسك ... اذكر دم من سقط منا على اسفلت الشوارع وظلت عيناه معلقتين بك : تحرقني الذكرى ... اشعر بغصة في حلقي .. يدور راسي ... أرى ملايين المناضلين السابقين ورؤوسهـم تستند الـى ايديهم ، وعلى الطـرف الاخر من يقايضهم علـى ماضيهم وحاضرهم وهم مستسلمون للتيار .

لماذا كنت تسند راسك الى يديك ؟ على هذه الصورة رايتك للمرة الاولى في حياتي . تماما كما كنت خلف مكتبك وانت تحدث اوليفييه . احترق الزمن والمسافات والرجال.. احترقت انا ماضيا وحاضرا ...

اقتربت منك بعصبية وجنون ، ونزعت راسك عن يديك ثم اتجهت الى الجدار بدم يغلي حقدا ، ومزقت أعلانا يمثلك في ساحة المحكمة وراسك بين يديك ووجوه الحضور مشدودة اليك . كدت اصرخ في وجهك :

— لا يحق لك ان تسند راسك الى كفيك ، انك تدنس

احداهما بالاخرى . فاوض يا عزيزي الماركسي المحترم وانت على صورة جديدة !

الصوت يخونني .. انظر الى بحار « سيزير » على الجدار وهو يصارع موج بحر ما من بحار هذه الارض . اشعر بشوق لان يلتهب البحر وان تشتعل الحجرة التي تؤوينا ... وقود العالم كله قد نفد في تلك اللحظة . الساعة تقارب الثانية عشرة والارهاق يجلدني . احمل السكين التي تستعملها لفتح صفحات الكتب .. اغرز سكيني في صدر بحار « سيزير » المسكين ... امزق اعضاء القارآت الحزينة المصلوبة على جدرانك ... ترقبني بدهشة فتسرع في انهاء مكالمتك .

تناديني فلا اجيب ... لم اعد اسمع ... عاد الرصاص ليسكن سمعي وعيني وجسدي ... انا شيء من الرصاص والصمت ، اركض باتجاه الباب دون ان اعير تساؤلاتك آي انتباه ... انطلق الى الشارع ... الى المدينة ... الى السين ... اجري مجنونة ... طلقة حقد ... عجينة صمت . عند اول « شاليه » القي بنفسي على مقعد حجري واسمع بكائي يختلط ببكاء الخريف والريح . ابكي واتذكر ماضيك ... ابكي واتذكر حاضرك ... ابكي والثم وجه « ابو مشهور » الاتي عبر الذاكرة . اشعر بالراحة قليلا .

لقد انتهيت مني في تلك اللحظة ، احسست عبئا ثقيلا ينزاح عن كتفي ، كان علي ان اقف بينك وبين ماضيك فأحررك منك. ان اعيد لك وجهك الذي كان ... باختصار ... ان انقذ فرانك من فرانك . فرانك الذي الهب ضميري

بكلماته حين كنـــت اطرح اسئلتي حول مستقبـــل الثورة وضرورتها في العالم الثالث ، وفرانك الذي لقيته بعد سنوات وقد قتلته الحضارة الاوروبية والسلام الموقت لبرجوازيته في وقت يشتعل فيه العالم صراخا وحرائق . لا شيء يشبه شيئا ... لا صورة تشبه صاحبها ... ما بين الواقع والخيال مسافات من الكذب والرياء والخديعة . ونحن مجموعـــة البلهاء الساذجين نصدق كل شيء . لماذا صدقت كل ما قيل لي في المدارس والاحزاب ومنظمات العمل السري ؟. لماذا اعتقدت ان البطولة تنام في صدر رجل في هذا العالم ؟.. كل شيء باطل وقبض الريح ... البطولة كذبة كبيرة نحن بحاجة لتصديقها ... الشجاعة كذبة اقل خطرا نمحو بها جبننا وضعفنا ... والحب هو الجريمة التي نستـــر بها عورة التملك والانانية والرغبة بالاستعباد ... كـــل شيء سقط وانتهى في تلك اللحظة . ما زلت اصدق ما قيل لي ؟ اما زلت اعتقد بصلاحية هذا العالم للمضاجعة والفـــرح والغنـــاء ؟

اصرخ عبثا ، محاولة ايجاد الاعذار لك ... الاعذار الكثيرة التي بحثت عنها من اجل نفسي اولا .

« انت على خلاف مع رفاقك ولا يمكن لك الاستمرار بينهم ، انكم لا تملكون التصور نفسه للثورة » .

« انت شريفة مع نفسك ، لا تقبلين بالتحول الى مادة استهلاك اعلامي رخيص.» .

« الثورة قد انتهت بتنازلات القادة » .

«لقد فقدت جزءا من حياتك وانت تبحثين عن ذاتك» .

هذه الاعذار كلها تمددت في الذاكرة يوم قررت الافتراق

عنهم ... يوم تركتهم تحت نيران « عينتاب » يوم هجرتهم لاكون زوجة لمهزوم مثلي . لا بد وان جسد « ابو مشهور » الاسمر قد مزقته قنبلة ما وتطايرت ذراعاه في الهواء لتكتب لي سلاما اشعر الان برائحته ... بعفنه ... بأقمطتـــه التي تشدني الى الارصفة والمقاهي ومدخني الحشيش . انا هنا جمرة ثورة منطفئة وانت هناك مسرحية ثورات . هكذا تسقط الاقنعة في لحظات الكشف الالهي ... ما زلت أؤمن بالالهة ... ما زلت أؤمن بالمعجزات الخارقة ! لاقل انني بحاجة لهذا الايمان عله يخلصني من جحيمك ومن صمتك المضني ... يقترب مني احد الصعاليك ... يصرخ بي عبر الخمرة التي يختلط بها : « اعطيني قليلا من النقود ، سأسكر هذا النهار حتى ارى باريس حقول فرح .. » . امد يدي الى حقيبتي وابحث فيها عن بقايا تنازلاتنا التـــي رغبنا أو لم نرغب بها ... اعثر على قطعة نقود فضية القي بها الى السكير المحترم ... انه اكثر احتراما من ثـــوار متقاعدين وهاربين يبحثون عن النسيان . يأخذ قطعة النقود ويمضي الى المجهول . أجمع جسدي ووجهي وخيبتي وانطلق الى ساحة « السان ميشيل » ... عند مكتبة « جيلبير » ارى وجها اعرفه : « احمد » في هذه الســـاعة المبكرة من النهار ؟ لا بد وانه يبحث عن « ماركس » الذي يحلم بذبحه بعد كأسي ويسكي ... كم اقلقني وجه احمد في الماضي وحيرتني احلامه التي يجمعها في داخله كاسطورة ثم يلقي بها في وجوهنا بعد ان يسكر ... يقترب مني :

ـــ ماذا تفعلين في هذه الساعة المبكرة ؟ لقد تعودناك متسكعة في اواخر الليل .

لا اجيبه ... اظل صامتة ... يلحق بي الى زاوية الشـــارع :

ـــ ما بـــك يا نادية ؟

يمسك بذراعي ونعبر معا اشارة النور ... ندخل مقهى يضج بعمال الارصفة ... القي بنفسي على مقعـــد خشبي عتيق ، اسمع تنفس باريس في صدري ... دخـــان المصانع وحرائق البترول ، يأتي الخاد م... يسألني عما ارغـــب :

ـــ كأس براندي .

يحدق بي احمد بفضـــول :

ـــ منذ متى وانت تتعاطين الكحول في الساعات الاولى من النهار ؟ هل تحولت الى سكيرة ممتازة مثلي ؟

أوه لو يدري احمد انني تحولت الى رصاصة لا قدرة لها على الفعل ... لو يدري انني املك الان كل شيء ... املك العالم ووطني وجسدي ... اذبح العالـــم ووطنـــي وجسدي ... انا خائبة ، وانتهى كل شيء .

ارفع كأسي الى الاعلى واصرخ كمجنونة :

ـــ في صحتك يا احمد ، سنذبح صديقنا ماركس ، ولكن على طريقتنـــا !

هل تعرف احمد ؟ التقيته مرة في بيتي ... انه يتحدث عن هيغل ويسكر ... عن « تشي » ويسكر ... يتحدث عن « فرانكفورت » ويسكر . في نهاية الحديث يسقط احمد في كأس الويسكي ولا يخرج منها ... يتحدث بعـــد ذلك عن الفلسطينيين وبيروت وثورته هو ... تذكره جيدا . احمد هو المأساة العربية بكل صورها ، اتذكر انك قلت لي

بعد سهرة معه : كم هو شقي ذلك الانسان ! سيظل يتحدث عن كل هؤلاء ولن يكتب شيئا ... الكتابة بحاجة الى الصمت. نعم يا فرانك ! الكتابة بحاجة للتآمر ، والتامر لا يتـــم الا بالصمت ، وأحمد لا قدرة له على الصمت والتامر . طفل يلعب بالنجوم ويعيد ترتيبها على طريقته ... كنا نضحك من أحمد عندما يعلن لنا هكذا وعلى رؤوس الاشهاد عزمه على ذبح اوروبا بريشة طائر ... نضحك ونميل على بعضنا هامسين بنكات تافهة . واذكر ان صديقي « محمد » قال لي ذات ليلـــة :

ـــ هل ستجدي ارض تتسع لبقايا جثث الفلاسفـــة الذين ذبحهم هذا المساء ؟ انظر الى وجهه في تلك الســـاعة وأتذكر انني ضائعة وخائبة ، وعلي أن انتقم . انا التـــي اعتقدت في غمرة قهرها ان الثورة فعل حضاري ، ونحـــن شعوب القات والحشيش غير قادرين على صنعها وهـــي لكم ... يوم ضاجعتك للمرة الاولى لم اكن أضاجع دما ولحما ، كنت اضاجع حديدا ورصاصا وغابات ... ويـــوم قبلتني للمرة الاولى لم اكن اقبل شفاها بل كتبا ونظريات ، ويومها كنت ساذجة واحب الكتـــب .

ـــ في صحتك يا احمد وصحة ما تنوي كتابته عـــن السيد « هيغل المحترم » ، سنحتفل معا هذا المساء بذبح السيد « ماركس » !

حزن يطوف بوجه احمد ويضع كأسه على الطاولة ، يسألنـــي :

ـــ كيف حال فرانك ؟ امـــا زال في باريس ؟... لقد علمت انه هجر زوجته بسببك . اخباركما تملأ الصحف .

هل اراد أن يطعنني كما طعنته ؟ ومن قال انني كنت ارغب في طعنه ؟ هل فهم احمد انني اهزأ منه عندما تحدثت عن الهتكم جميعا ... هيغل ، ماركس .. نيتشه ، ألى اخر هذه القائمة من الاسماء العجيبة ؟ آبدا ، ليست القضية كذلك .

ـ احمد ، دعنا من فرانك ! لماذا لا نتحدث مثلا عن تطور الزراعة في « ابو ظبي » ؟

تطل نظرات احمد من عينيه أسئلة محشوة بالاسئلة :

ـ ماذا دهاك ؟ لقد تغيرت يا نادية !

ـ اوه ، احمد ! دعنا من ذلك ... أسألك ، اما زلت تعتقد بامكانية الثورة في بلدان الارهاب ؟

حاول ان يلحق بجنوني ويبدو عاجزا .

ـ تبدين غريبة هذا الصباح .

اصرخ بحدة ... يختلط عوائي بصوت الخادم الذي جاء يطالبنا بدفع الحساب .

ـ قل لي يا احمد اذا كنت ما تزال تؤمن بالثورة ..

يجيبني بدهشة :

ـ نعم ، لم تتغير قناعاتي .... ان الموت ضرورة من اجل ....

يتقيأ امامي اكاذيب المبادىء والثورات ... ابحث في وجهه عن زاوية صدق اركن اليها .... لا شــيء ... لا شيء . اقول له بهدوء يشبه سكرات النزع الاخيرة :

ـ هل تعرف ؟ لقد قتلت فرانك هذا الصباح !

يصعق امام هدوئي :

ـــ ماذا تقولين ؟ ... مجنونة ! لماذا قتلته ؟

لن اشرح له أبدا ... ما الفرق أن اقتلك او أدفنك حيا ؟... يظل الصمت بيننا ... أحس براحة عجيبة . لقد تخلصت منك ... يأخذ بيدي ويجرني الى أول سيارة اجرة، يلقي بي داخلها ويستقر الى جانبي ثم يطلب من السائق الاتجاه الى بيتي ... أسمع عنوان سجني كأنني أسمعه للمرة الاولى في حياتي . في الماضي كنت أتجه اليه بفعل الغريزة ... انام بفعل الغريزة ... آكل وأشرب وأحب واضاجع بفعل الغريزة . ولكن لماذا هذه الصحوة في دمي ؟ نصعد معا السلم الخشبي ... امد يدي فأبحث عن المفتاح ... اعثر عليه كجثة طفل في مقابر مهجورة ... ادخل ... ندخل معا ، يحاول مساعدتي على خلع معطفي ويمددني على السرير .

ـــ قولي لماذا قتلته !

تروقني المسرحية والممثلون ، يختلط النص والمسرح ، اظل صامتة . الهاتف مرة اخرى ... يرن الهاتف بشدة . من يهاجمني في هذه الساعة ؟ يرفع أحمد السماعة ويأتي صوتك :

ـــ أريد ان اتحدث الى نادية .

أتناولك جثة هامدة ويتفجر الغضب عبر الاسلاك ... يضحكني غضبك . اما زلت تعرف الغضب ؟ تريد ان تفهم لماذا فعلت ما فعلته ... لماذا مزقتك صورة وتاريخا ... لماذا طعنت صدر صديقي المسكين « بحار سيزير » ... لماذا اطلقت صحوة جنوني في فضاء بيتك الميت الحي ، لماذا؟ من الصعب ان اشرح لك ... من الصعب ان اقول :

انك ... ولكن لماذا اقول ؟ لم يعد يهمك ان تفهم ...

ـــ فرانك ، انا ميتة ، لقد أعلنت ذلك ... اترك اي لحظة هذا اللقاء مع الموت .

نضـــــع السماعـــــة معـــــا ، انظـــر الـــى لحظة هذا اللقاء مع الموت . نضع السماعة معا ، انظر الى وجه صديقي الذي تحول ألى اكثر من سؤال ... اشـــعر برعشة برد ... ارتجف ... يهرب الماء من جسدي وعيني واذني ... أرى نفسي بئر ماء تتضح بحزنها ... اســـمع صوتا غريبا في الغرفة . صوتا شاذاً وغير مفهوم ينطلـــق من خلف المدفأة الغازية ... من اسفل الحائط الذي اخترته ليكون لي وطنا . زرعت عليه خارطة بلادي ألبعيدة ووجه امي وابي وبعضا منـــك . اسرع ألى المـــدفأة واتظاهـــر باشعالها ... انظر خلفها ، ارى حشرة كبيرة ســـوداء قد بدأت بقرض الجدار ... ارتعش اكثر .. تتزاحم الاسئلة في راسي « منذ متى والحشرة تقرض الجدار ؟ » « منذ متى وهي تسكن حجرتي ؟ » « منذ متى ... اعود لنفسي » .

ان الجدار عتيق ... خشبي عتيق وهي لا بد واصلة الى خارطة الوطن ... لا بد ستهدم ألجدار ... ارفع كتفي بلامبالاة واقول في داخلي : « الجدار ... عتيـــق ولست التي بنتـــه » .

اتجه الى ألمطبخ ... اصب قدحي ويسكي لي ولاحمد اناوله الكأس ، واجلس على حافـــة السريـــر . ارفـــع يدي بدم الصحوة :

ـــ في صحتك وصحة الصماليك والمشردين امثالنا !

شيء اكبر من الخوف يرتعش في داخلي . ويفهم احمد انها لحظة صحو عابرة لا بد آن يأتي بعدها تخدير النسيان ... ربما كنت الوحيدة ألتي تشدها الكحول الى الصحو

... كلما غرقت في كأس جديدة أصحو مئة عام ، والحياة اليومية التافهة والعادية تسكرني ، بل تقتل انسانيتي .

نتحدث عن لبنان ونسكر ... نتحدث عن فلسطين ونسكر ــ عفوا نصحو ــ نتحدث عن الثــورات المطعونه ويقتلنا السكر . ابدا لا اتكلم عنك ، لقد دفنتك ذلك الصباح واسترحت ... ظننت انني انتهيت منك ... صدقت اللحظة واعتبرت اللذة العابرة للخروج من بئر النسيان لذة ابدية ... نظل نشرب والنهار ينسحب ببطء مــن الرماد واجسادنا والعالم ... يمشي النهار ابدا باتجاه الليل و لايقف ليقول لنا أنه يمشي ... ضجيــج السيارات يصلنا مــن شارع « الجنرال لوكلير » فيبدد وحدتنا . كنا وحيديــن في تلك اللحظة ودون أوطان او مدن ... دون ثورات أو نماذج ثورية .. دون ماض أو بطولات لم نقم بها او قمنا بهــا لنقتل مللنا ... حاولت ان اقتلعك من داخلي والقي بــك الى الصوت الذي كان يقوى ويقوى ويأتينــي من خلــف المدفأة فيتآمر على سكينتي .

اقف فجأة وانا اترنح بعد زجاجتي ويسكي « دوبل » والقي خطبة عصماء مفادها : لا ثورة ولا ثوار ... بــل اناس عاديون يعيشون الحياة بصمت . انها البطولة ان تعيش حياتك بشكل عادي ! كم كان ابي بطلا عندما قــرر ان ينجب تسعة اطفال ويربيهم ... عفوا لم يقرر ذلك ، بل اتينا الى الحياة دون قرارات ... هزيء احمد مــن اكتشافاتي ثم تركني ومضى .

اغلقت النوافذ والابــواب ... تعريــت امام المرآة وتفقدت اعضاء جسدي عضوا عضوا ... اخافني الزمن

الذي بدأ زحفه على وجهي ... رأيت الزمن حول العينين ... سمعت صوت الحشرة يهزأ مني : « ستموتين ايتها السيدة الجميلة ، ستموتين دون ان تجدي لك وطنا ! »

زعقت كالمجنونة واسرعت احطم المرآة التي ترسمني ... رأيت نفسي شعبا ممزقا ... بقايا رماد ...

يظل الصوت مستمرا في عوائه والمرآة تحولت الى مرايا . في الماضي كنت أعشق المرآة ، ومعاهدات الصلح التي يعقدها المتقاعدون مع ارواحهم ... في الماضي كنت اوافق على صورتي ووجهي في المرايا ... في العيون ... في وجهك انت . لكن تلك اللحظة جعلتني اكره نفسي والمرايا وأكرهك .

قرع خفيف على الباب ... اترك حياتي خلفي رهينه قطع الزجاج والجدران وبيانات الحشرة ... اتجه كدمية مسيرة فافتح ... تبدو امامي وشريط يلفه الضباب والنسيان يشرنقك بشيء من الرماد ...

— ماذا حصل ، ولماذا فعلت ما فعلته ؟

لا اجيبك بشيء ، اتجه الى السرير والقي بأشلائي ... اسمع صوت « ابو مشهور » يختلط بصوتك ... بصوت الحشرة ... يهتز الوطن على الجدار وانت مسمر في الزاوية ... رغبتان تتنازعانني ، احداهما تصرخ بي : « ايتها الجبانة ! كفي عن الهرب ، الى اين انت ماضية ؟ أتهربين من جلدك ؟ » والرغبة الاخرى تطلب الي ان اكف عن التساؤل واتجه اليك فأغرق في جسدك وانسى صحوي . اعوض بك ثوريا متقاعدا عن الفعل الثوري الحقيقي الذي تحتم علي حياتي السابقة ان اعيشه .

« عينتاب » خارجة من صدر المتوسط ومتجهة الى صدري ... تقبلني بشفاهها ، تدخل في غابة الجسد ... تسألنـــي : « الى اين انت هاربة ؟ »

أخاف ان يتفجر راسي ويهتز الجدار ... ان تصل الحشرة الى الوطن وتبتلعه ... اخاف ان اركض الى درج مكتبي فأخرج المسدس الذي تراكم عليه الغبار منذ زمن ... منذ كنت امراة محبة . المسدس الذي رافقني اينما أتجهت كأيقونة ... لقد كدت انساه خلال رحلات النسيان الماضية كدت انسى الرصاصات الخمس التي تستقر في جوفه فتجعل منه خلاصا لي ... خلاصا من الموت البطيء . اهم بفتح الدرج فأرى يدك على يدي باردة كالثلج ... انظر اليك .. تجرني الى السرير ونبدأ معا رحلة اخرى من رحلات الجسد والنسيـــان .

عندما حاولنا ان نكون معا ، او عندما حاولت ان اكون معك ، نسيت كل شيء . وبعد ثوان تحولت الى قطة اليفة تمسح جروحها في صدر غابة . نسيت للحظات الحشرة ووجه « ابو مشهور » ومذابح احمد الشهيرة ... خرج المسيح من قبره ... نزل عن الصليب . ووشحتـــك بصورته ثم انتقلنا معا الى قمة موج مرعبة قذفت بنا الى الشراشـــف والرطوبة المستحبة لاعماق المحيط . شددت بك ! لي وكأنني اتمسك بصخرة ... بجذع شجـــرة خوفا من الظلمـــات الاسطورية للمحيطات ... نسيت ... نسيت ... نسيت .

يتسلل الليل الى الغرفة ... جثتي وجثتك تطوفان الزمن بحثا عن السكينة ... عيناي معلقتان بالسقـــف ،

اشعل الضوء ، يفاجئني وجهك ووجهي . أمسح بيـــدي على صدرك ... اقـــول :

ـــ لماذا اتيت ؟

تسكتني بقبلة وتسألني :

ـــ ما بك ، ألا ترغبين في النوم ؟

اظل صامتة واتقلب في الفراش . منذ ودعتهم وانـــا رهينة الارق . استيقظ في الليالي الباردة وانطلق الى التسكع في الشوارع حتى يضنيني التعب ... اعود مرهقة فأغرق في الطعام واهرب الى عملي ... تسقط حبال الضوء على جسدينا ، ادير وجهي للجدار متفادية عينيك ... متفادية اسئلتك . كنت عارية من ثيابي . ولم أفطن الى انه لا يحق لي ابدا ان اكون عارية ، هذا ما قاله لي الطبيب الذي جهد لاخراج الرصاصة من كتفي عقب آخر عملية قمت بها ونجح احد رجال المخابرات الاسرائيلية باصابتي ... تقع عيناك على مكان الجرح ... أسمع صوتك مندهشا وحانيا في وقت واحـــد :

ـــ ما هذا في كتفك اليمنى ؟

يمر الصمت واتذكر ، احاول استرجاع انفاسي ... احاول استعادة حبال الاكاذيب التي عشتها ... اوقـــظ المرأة المقاتلة وحذرها :

ـــ آه ، لا شيء ... اثر عملية جراحية اجريت لي عندما كنت صغيرة عقب سقوطي عن الفرس .

ـــ وهل كنت فارسة ؟

ـــ اركب الخيل لكنني لست بفارسة .

يظل وجهي في الجدار واخاف ان التقي عينيك، لو فعلت

لادركت انه لا يمكن لمقاتل اخفاء وجهه عن مقاتل اخر ... لا يمكن ان نخفي اثـر الرصاصات لا عن طبيـب ولا عن مقاتل . هل صدقتني ؟ غير مهم ... لقد تظاهرت بذلك . اسمع انفاسك ... احسها على كتفي في مكان الرصاصة. احس رغبة عميقة بالبكاء ... بالصراخ ... بالغناء ... بأن اقول شيئا ، اي شيء . التفت اليك واتذكر ما نسيت :

ـ فرانك ، لماذا لا تتحول الى شيء شبيه بالوطن ؟

يطل استغراب حقيقي من ملامحك ، لماذا اهذي في لحظة العناق والحب ؟ لماذا اعكر استسلامك بصورة اوطان وغابات ونخيـل ، لماذا ؟

ـ حاولي النوم ، تذكري بعضا من حكايا امك ... انك متعبة وعلينا ان نغادر باريس لايام ، علك تستريحين.

يبدو انك لم تدرك ان المأساة في داخلي احملها معي كيفما اتجهت ... لا يجديني ان اغادر مدينة او ادخـل اخرى ... لا يجديني ان اعيش في غابـة او في جبل ... المأساة معي ... جزء مني .

اتذكر حشرتي الحبيبة . نعم انها عزيزة علي ! فهي الوحيدة التي تصرخ بصدق ، اسألك :

ـ فرانك ، ألم يحصل ان اكتشفت حشرة ما في غرفتك في السـجن ؟

تبتسم ويشتعل وجهك بالماضي :

ـ في السجن ؟ كنـت اتسـاءل عن صلاحيـة العالم الخارجي وفائدته ... كنت امارس بعض طقوس الفـرح ... اتذكر عيني « سيمون سينيوريه » الجميلة واحلم ...

ـ لماذا لا تعود الى العالم الثالث ؟ ما الذي يشدك الـى فرنسـا ؟

ـــ نامي ... انك متعبة ... فرنسا وطني ولي فيها اشياء كثيرة .

ـــ لك فيها التخمة والرخاء ... لك فيها بيتك المؤثث جيدا في جزيرة « السيتي » ... لك فيها ....

ولا تدعني اكمل عبارتي :

ـــ لي فيها كل شيء ، اسمي ... كتبي ... الطبقة العاملة التي اناضل من اجلها .

ـــ أن الانسان هنا يعيش ويناضل ليأكل قطعتي بفتيك بدلا عن واحدة ، لكن الانســـان في العالم الثالـــث يقاتل ليعيش . لماذا عدت من القارة السوداء ؟

تظل صامتا ... تدير وجهك الى الجدار الاخر وتنام.

منذ تلك الليلة والحشرة ترافقني اينما اتجهـــت ... احاول عبثا نسيانها او الخلاص منها ... احـــاول تجنبها والالتصاق بشيء اخر يبعدني عن البيت ... ارى اصدقائي السابقين واحدثهم عن الليل . اكتب ... اذهب اليك ... لكن الحشرة ورائي ... امامي ... الى جانبي ... في كـــل مكان .

واذهب الى صديقي الباهي واقص عليه امرها . نفكر معا بطريقة ما تساعدني على الخلاص منها ... نجلس في زاوية مقهى « سان كلود » ونأخذ اوراقنا ثم نرسم عليهـــا خرائط كثيرة اشبه بخرائط عسكرية ... نسجل احتمالات الربح والخسارة لمعركة سنخوضها مع الحشرة ... ندرس امكانية نقلها الى مكان آخر ... او تسريحها من جيشي ، عفوا من حياتي . ارسالها الى سفارة ما في الخارج لتمثلني

... عفوا لتمثل مملكة الصعاليك . لكننا نفشل في ايجاد افضل وسيلة . يقول لي الباهي بعد عشاء دسم في مطعم « مكسيم » دعانا اليه احد امراء النفط « الثوريين » :

ـــ لماذا لا تقتلينها ؟

ـــ هل انت مجنون ؟ اذا قتلتها فماذا يبقى لي ؟ ... اقصد عن ماذا اتحدث ؟ انها على الاقل تمنحني فرصـــة الثرثرة !

ونتفق انها ضرورة لا بد منها على الاقل كمادة للكلام ... في قمة صحوي ، اقصد سكري ، تأتيني الضربـــة الصاعقة واكتشف وسيلة للتخلص منها . اترك باهي وامير النفط « الثوري » ثم اتجه الى غرفتي ... ابحث عنها خلف المدفأة ، ما زالت مكانها ... اضعها في كيس صغير ثم اتجه الى محطة « سان لازار » فأستقل القطار الى « دوفيل » . وعند اقدام البحر استلقي على الرمال تاركة لها حرية الجري والقفـــز واللعب .

تهاجمني الشمس واتظاهر بالنوم ... عندما تراني الحشرة ممددة فوق الرمال تغمض عينيها وتفعل مثلي ... بعد ساعات ، افتح عيني فأجد الحشرة ما تزال غارقة في احلامها ... انها فرصتي ولن اتردد ... أجري باتجاه محطة القطار واعود الى باريس وحيدة .

أمام باب بيتي اتردد قليلا قبل ان اعبر السلم العتيق ... اسمع وقع قدمي على الخشب ... ابحث في حقيبتي عن المفتاح ... افتح ... يلفحني صوت من الداخـــل كالصاعقة : كانت الحشرة في البيت خلف المدفأة ، لم تغير موقعها قيد انملة ... أرتجف وانا استمع الى صـــوتها المختلط بصوت « ابو مشهور » والوطن ... أرى وجـــه

الرفاق مرة اخرى ... جاءوا الي يعذبونني في وحدتي ... رائحة الحرب والاجساد التي شوهتها القنابل ... وجه جنيف وسجون المانيا الغربية . وجه « حران » المحترقة و « عينتاب » النائمة . ثم واخيرا « العملية » التي خضتها في سهول الشمال ... في اعماق الارض المحتلة ، تلك العملية التي كانت الحد الفاصل بيني وبين رفاقي .

(عدت الى حران عن طريق بيروت بعد ان اشترطت سلطات المانيا الغربية عدم دخولي اراضيها . اجتمعت في المساء نفسه مع مجموعة من اعضاء المكتب العسكري وابلغتهم قناعتي بعدم جدوى العمليات الخارجية والانتقال الى الضرب في عمق الارض المحتلة ... حاول عصام ان لا يسمعني ... تجاهل نايف وفرحان ملاحظاتي ... تظاهر « ابو ليلى » بالتعب واجلت المناقشة الى اليوم الثاني .

لقد ظنوا انني ما ازال مرهقة من اثر السجن ، قدروا ان فشلي واصابتي في اخر عملية تحويل طائرة قد اثر علي كثيرا . نصحوني بالنوم وحاولت ان انام . في اليوم التالي عدنا معا للنقاش وكان رايي واضحا : لا يمكن لنا الاستمرار في اساليبنا السابقة ... لا جدوى من خطف الطائرات .

ظل الرفاق متمسكين بقناعاتهم وظللت بينهم غريبة ... لاول مرة احس بالغربة معهم ... اين « ابو مشهور » لاقول له انني اقتنعت اخيرا بوجهة نظره ؟

لقد تحول الى مقاتل في احد معسكرات الشمال بعد ان رفض المشاركة في عمليات الخارج . بل كان مسؤول قطاعنا العسكري .

كان الرفاق قد انتهـــوا الى قـــرار اخير فيما يتعلق بمستقبلي بينهم : لا يمكن لي المشاركة من جديد في اية عملية خارجية ، فوجهي غدا معروفا لدى كافة مخابرات اوروبا . كما لا يمكن لي ممارسة اي نشاط علني في وسط المخيمات او المعسكرات خوفا على حياتي بعد ان تحولت او حولتني الصحافة الى رمز . صنعوا مني بطلة وهمية ... صنعوا مني مادة للاستهلاك . ومرة اخرى قرروا عودتي الى العمل الاعلامي : « تستقبلين الصحافيين وتحدثينهم عن تجربتك».

صرخت في وجه نايف بجنون :

ـــ اي ان اتحول الى مادة للاستهلاك .

ـــ هكذا تتطلب مصلحة الثورة .

ـــ ولن اقاتل مرة اخرى ؟

ـــ لا يمكن لك ذلك ضمن الظروف الحالية .

ـــ اريد الالتحاق بأحد المعسكرات ، اريد ممارسة دوري كمقاتلـــة .

ـــ لا يمكن ذلك . ان حياتك في خطر ... لقد تحولت الى رمـــز .

استقررت في بيت من البيوت السرية التابعة للتنظيم ، منتظرة ان تهدأ الضجة الاعلامية التي اثارها اطلاق سراحي. كنت اتلقى زيارات متفرقة لبعض اعضاء بتنظيمنا النسائي يطلعونني خلالها على اخر تطورات الموقف . آنذاك كانت الثورة الفلسطينية تعيش مرحلة صعبة من تاريخها . كان النظام في البلد المضيف قد صمم والى الابد على انهائهـــا وبدات الحوادث المتفرقة في المخيمات تأخـــذ اشكالا جديدة وتتعمد بالـــدم ...

جاءني عصام في البيت الذي احتجزت به وابلغني قرار قيادة التنظيم بالحاقي بدائرة الاعلام في « عينتاب » . لـم اجبه ، ظللت صامتة ... لم يكن لدي ما اقوله .

في اليوم التالي سمح لي بمغادرة البيت لزيارة « ام العبد » ، وهناك التقيت « ابو مشهور » . عندما لمحتـه اسرعت اليه جارية وتعلقت برقبته ... حملني كطفلة واخذ يدور بي . شعرت يومها بأنني له ولن اكون الا كذلك ... تحدثنا عن كل شيء . حكيت له قرار القيادة حول مستقبلي كمناضلة ... حدثني عن مقاتلي القاعدة في الشمال ... حدثني عن الروح العالية التي بلغوها . طلبـت مرافقته لقضاء ايام بينهم ، علني اقتنـع براي الـرفاق في المجلس العسكري . وتحت الحاحي الذي تحول الى رجاء في النهاية؛ صحبني واتجهنا الى الشمال .

هناك التقيت « فرحان » مرة اخرى ، وتحت ضـوء مصباح غاز عتيق درسنا معا خطة عملية كان من المفروض القيام بها في اليوم التالي . رسم لي « ابو مشهور » الخطة على الورق وافهمني ان الهدف العسكري من العملية : ضرب نادي ضباط في احد المدن القريبة من الحدود . اما الهدف السياسي فاجبار المنظمات الفدائية الاخرى علـى الاعتراف بنا كقوة عسكرية وتمثيلنا في المجلس الوطني الذي كان معقودا في القاهـرة . سهرنا الليـل بطوله نتدارس امكانية التنفيذ ، ولاحظت ان الاستطلاع لم يكن كافيا ... الامر الذي يسبب تأخير العملية يوما او يومين ، والا فتكون مخاطرة عسكرية غير مأمونة العواقب ، لا سيما وان الشهر في منتصفه ، والقمر يرسل بأشعته فيكشف حتى الصخور الصغيرة المختبئة في حضن الاعشاب . اعترض « فرحان »

على فكرة التأجيل لان ذلك يفوت علينا امكانية فرض وجودنا في المجلس الوطني . وبعد ساعتين ، تلقينا هاتفا من القيادة في « حران » يطلب الينا التنفيذ الفوري لان اجتماعات القاهرة قد بدأت. مبكرة والانتخابات ستكون في اليوم التالي.

وزع ابو مشهور المقاتلين على ثلاث مناطق . كان من المفروض ان يعبر الحدود فصيل مكون من خمسة عشر مقاتلا في الساعات الاولى من الليل ، يعززهم خمسة عشر مقاتلا اخر من جهة « ترشيحا » بينما يستقر عشرة مقاتلين في قرية « المنصورة » فيشغلون كتيبة الدبابات التي يمكن لها ان تتحرك باتجاه الهدف في حالة معرفتها بالهجوم . يبقى في القاعدة حيث كنا عشرة مقاتلين فقط لحماية ظهر المجموعة التي تخترق « المنصورة » . وكان من المفروض ان ابقى معهم بصحبة صحفي يساري فرنسي ... تقتضي مهمتنا معا القيام باستطلاع اولي بعد دخولهم العملية بساعة ، ثم الاتصال بهم في القاعدة الشمالية ، أي نقطة العبور ، باتجاه الهدف ، في حالة حصولنا على اية معلومات جديدة ، كما أوكلت الي قضية معالجة الجرحى وتأمين نقلهم الى الخطوط الخلفية خوفا من اية عملية انتقام يمكن ان تحدث .

اخذت القلم من يد « ابو مشهور » واعدت توزيع فصائل المقاتلين . شرحت ان دخول خمسة عشر مقاتلا مرة واحدة الى مدينة هي اشبه بقلعة سلاح مجازفة بحياتهم في حالة اكتشاف امرهم . ونصحت ابو مشهور ان لا يكون على راس العملية كما هو مفروض ، كنت ادرك تماما وبعد تجربتي معه في جنيف ان نقطة ضعفه تكمن في شجاعته التي تصل الى درجة اللاحذر ... تلك الشجاعة التي تتحول

الى خطر اكيد في حالة حرب المدن ... خطر على سلامة المقاتل ومجموعته . أحس « ابو مشهور » كأن في كلامي انتقاصا من امكانياته ، واصر على قيادته للمجموعة ... حاولت عبثا اقناعه بأن ينهي قيادة مجموعة « نادي الضباط » الى فرحان ويبقى هو على رأس المجموعة الاخرى التي ستدخل « المنصورة » اذ ان وجود السكان العرب في المدينة سيساعد على الاختفاء لو فشل في الاقتحام . لم يؤد النقاش بيننا الى نتيجة ، ولا حتى اقتراحي بالتأجيل الكامل للغد حتى تحسم قضية الاستطلاع وتوزع قيادة الفرق . وهكذا اتفقنا على ان ينطلقوا في الثانية عشرة ليلا باتجاه اهدافهم.

وقفت امام البيت الذي كنا نشغله وودعتهم واحدا واحدا . مازحت احد المقاتلين الذي كنا نلقبه : بـ « علي كارلو » نسبة آلى السلاح الذي يجيد استعماله ... قلت له انني انتظر عودته من العملية بسلة تفاح اشتهرت المدينة التي سيدخلونها بزراعته ، واذا ما حصل وعاد خاوي اليدين فساعيده من جديد الى الارض المحتلة ! اقترب مني « ابو مشهور » وقبلني في جبيني دون كلام ... دون وصايا ... ما اتفه اللغات ! لغات الارض كلها كانت عاجزة عن حمل ما يشتعل في داخلي تلك اللحظة ... ذهبوا جميعا ووجدت نفسي وحيدة مع الصحفي الفرنسي الذي حاول ان يقنعني باعطائه مقابلة صحفية لجريدته رفضتها دون تردد . بعد ساعة تقريبا قمت بعملية الاستطلاع الاولى ولاحظت بعض كتائب الدبابات تتحرك في قرية المنصورة باتجاه الهضبة ، وهذا يعني ان رفاقنا في المنطقة الوسطى لن يتمكنوا من ضرب الهدف وعلي تنبيههم حالا ... اخذت

جهاز اللاسلكي وبدات بارسال نداء الى مجموعة الهـدف الرئيسي ... سمعت صوتي يردد :

« ابو مشهور ... ابو مشهور ، الكتائب قادمة من الجنوب ، حاولوا الانسحاب » .

طغت الانفجارات على صوتي ... انفجارات ... قنابل مضيئة تلتمع في كل مكان ... جاءتني « ارم » بثوبها الحزيراني ورأيت وجهها في كل مكان ... استلقيت على بطني في زاوية الغرفة طالبة الى الرفاق عدم فتح النار حتى لا يستدل العدو على موقعنا . كان الصحفي الفرنسي يتاملني بدهشة واعجاب . يحاول جاهدا ان يكتب شيئا ما على اوراقه المطروحة امامه كجثة . صرخت به ان يتوقف عن الكتابة وينبطح على بطنه ، وكانت قذيفة مضيئة تعبر سطح البيت فتهز اركانه . لم اتلق اي جواب على النداء .. ادركت بمرارة أن الرفاق يعانون من صعوبات تمنعهم من استعمال اللاسلكي ، وقررت التحرك باتجاه الشمال برفقة المقاتلين الذين بقوا معي . خرجت الى ساحة البيت منادية عليهم ... اجتمعوا وانطلقنا مزودين بأسلحة خفيفة وفي رفقتنا الصحفي الفرنسي ، وبينما كان البيت الذي استخدمناه كقاعدة لنا يغرق في العتمة ، انفجرت قنبلة قريبة منا حولت المكان الى نار ... تقدمت عشرة امتار فاذا بقذيفة أخرى تمر قريبا من قدمي .. قفزت محاولة تجنبها ولمحت احد الرفاق يسقط صريعا والدم بغسل وجهه . طلبت اليهم الانبطاح جميعا وانتظرنا ، عل المعركة تهدأ . فجأة سمعنا صوت المدفعية النظامية ترد على القصف فقررنا الانسحاب والعودة الى القاعدة . لقد بدا لي التقدم وسط الظروف المحيطة مسألة مستحيلة ولا بد أن موقعنا قد اصبح

مكشوفا ، اذ ان القنابل مركزة عليه بصورة مرعبة . حملنا الرفيق الذي كان يلفظ انفاسه وتراجعنا آلى الخطوط الخلفية منقذين ما استطعنا من الاسلحة ... أستمرت قذائف النار على رؤوسنا حتى الفجر ومع الخيوط الاولى للنهار هدأ كل شيء . في الخنادق عدت من جديد للاتصال بمجموعة الشمال وسمعت صوت فرحان يجيبني على الطرف الاخر :

ـ حاولي الاحتفاظ بالرفاق ، لقد سقطنا في كمين .

قفز الدم الى رأسي .. كنت عاجزة عن ان افعل شيئا ... حاولت الاستفهام عن طبيعة الكمين الذي سقطوا فيه ، لكن صوت فرحان اختفى ، وظل صوتي يردد بعصبية:

ـ آلو ... فرحان ... اخبرني هل يمكنكم التراجع؟

سقطت اشعة الصباح علينا في الخنادق وسمعت اصواتا قادمة ... وضعت جهاز اللاسلكي جانبا وحملت بندقيتي وخرجت . كان فصيل المنصورة قد عاد ومعه اثنان من الجرحى ... مدفعية العدو صمتت ايضا أمام مدفعية الجيش النظامي ... أسرعت اساعد الرفاق الجرحى على دخول البيت ثم رحت اضمد جراحهم بمساعدة الصحفي الفرنسي ... كانت الوجوه شمعية وصامتة كأن شيئا كالموت يلف ملامحها ... كنا ندرك ان فصيل « ابو مشهور » لن يعود ، وأحسست الالم يمزقني . لن التقي وجهه بعد اليوم ، لن التقي وجه عليّ كارلو ولا فرحان ... لم استطع الاستسلام للتفكير ، فقد كانت امامي مهمة محددة : هي نقل مركز القاعدة بأسرع ما يمكن الى مكان آخر ، لان العدو قد كشف مواقعنا ، ولا بد ان سقوط خمسة عشر مقاتلا من رفاقنا في ايديهم جعل الامور في غاية الصعوبة . فمن

يدري تحت اي ظرف سقطوا ؟ وهل هم قادرون على ان لا يتكلموا تحت وطأة التعذيب ؟.

اعطيت الاوامر للرفاق بالعمل على نقل الاسلحة الى السيارات ، وبدأنا معا بتعبئة الذخائر في أدراجها ، ثم غادرنا المعسكر باتجاه الداخل . في طريق عودتنا الى الجنوب الشرقي التقينا دورية عسكرية نظامية ، استوقفتنا وطلبت الينا الاتجاه الى معسكر قريب . حاولت أن أناقش مسؤول الدورية بالسبب الذي يدفع به الى الاحتفاظ بنا الا أنه لم يجب بشيء . لقد فهمت بشكل غير مباشر : أن دخولنا عملية امس دون الاتفاق معهم ... بل دون الحصول على اذن مسبق من وزارة الدفاع جعل الجو بيننا وبينهم غير طبيعي ، فقد كانت الاتفاقيات تقتضي أن نتقدم بطلب السماح لنا باجراء اية عملية عبر اراضيهم الى وزارة الدفاع قبل خمسة عشر يوما من تاريخ التنفيذ ... هذه المسألة التي اوقعتنا في السابق في تناقضات ومشاكل لا حصر لها ، فالاهداف التي كنا نحددها تتغير بسرعة وأحيانا قبل وصول الموافقة ، مما اضطر الرفاق قادة القطاع الشمالي الى خوض عمليتين او ثلاث دون اذن مسبق . الا ان عملية الليلة الماضية كانت من العنف بحيث أضطرتهم للتدخل عسكريا رغم قرار وقف اطلاق النار بعد الخامس من حزيران .

اتجهنا معهم الى أحد معسكراتهم ، وهناك التقانا ضابط برتبة « مقدم » طلب الينا ترك السيارة والدخول الى الخيام ، ثم دعا قائد العملية ان يذهب الى مقابلته في خيمته . كنت الوحيدة الباقية خارج الاسر والموت من قيادة

العملية . لحقت به وعندما دخلت عليه الخيمة هب واقفا وحدق في وجهي بذهول :

ـــ أهذه انت ؟!

كان قد تعرف الى صورتي في الصحف عقب اخر عملية نفذتها في المانيا . يومذاك تحدثوا عني طـــويلا . نشروا صوري على الصفحات الاولـــى ... تكلموا عن الفهـــدة الشجاعة ... النجمـــة ... الاسطـــورة ... الحيـــوان الاستوائي ... عن الارهابية المدربة جيدا . لقد صدق ابو مشهور عندما قال لي في جنيف : ان البطولات الفردية مسالة مهنية للرفاق الذين يمـــوتون بصمت . احسســـت تلعثمه فتحدثت انا .

ـــ نريد ان نشكركم على مشاركتكم في عملية البارحة.

ظل صامتا ... استطردت :

ـــ اننا اسفون ، لم يكن بامكاننا انتظار موافقة وزارة الدفاع ، لقد كانت استطلاعاتنا تبين امكانية تغير الهدف .

ظل صامتا .. تابعت :

ـــ يرجى السماح لنا بتغيير مواقـــع المعسكر ، ان سقوط رفاقنا بالاسر يجعلنا في خطر حقيقي لو بقينـــا في مواقعنا السابقة .

هز رأسه بصمت وأطرق الى الارض ... بعد دقائق توجه بالحديث الي :

ـــ تعرفين جيدا انه من الخطر خوض اية عملية دون انتظار موافقتنا المبنية على دراسة ظروف المنطقة ... لا تتصوروا ابدا ان وزارة الدفاع تتردد في أعطائكم الموافقة لاسبـــاب اخـــرى .

يصمت الناطق الرسمي باسم السلطات والانظمة . . اتذكر أيام حزيران و « ارم » علـــى ابوآب السقوط . . . يومها قبلت ايديهم جميعا . . . رجوتهم فردا فردا ان يمنحوني سكينا ادافع بها عن نفسي فرفضوا . لم اكن املك ما أقوله لهم في تلك اللحظـــة . . . كان دم رفاقي يســـقي تـــراب الهضبة التي تركتها . . . احببت فقـــط أن اتأكد اذا كنا رهائن ام لا . . . حاولت آن اطرح سؤالي بشكل مباشر . . . ان ألح على قضية السماح لنا بتغيير مواقعنا . . . ان يسمح لبعض منا بالسفر ألى حران لابلاغ قيادتنا بالنتائج . وبعد ساعة نقاش استقر الرأي على الاتصال بقيادته وانتظـــار ردهـــا .

مرت الساعات بطيئة وانا انتظر . . . رفاقي ينتظرون والشمس تتسلق السماء فترسل بأشعتها الى اجسادنا . انتحيت جانبا وحركت ابرة الراديو علـــى اذاعة العدو في محاولة لالتقاط نشرة اخبار الظهيرة ، وكما توقعت تماما في الليلة الماضية فان كمين « ابو مشـهور » اكتشف امره قبل الوصول الى الهدف ، مما اضطره لخوض معركة كانـــت نتيجتها ـــ حسب اذاعة العدو ـــ سقوط ثلاثة قتلى والبقية في الاسر .

واشار المذيع الى انه تم التأكد من وجود معسكـــرات « للمخربين » قريبا من « المنصورة » . وهذا يعنـــي ان رفاقنا اعترفوا . . . لكننا لا نعرف تحت اي ظرف تم ذلك . ولم تذكر اذاعة العدو اسماء القتلى ولا هوياتهم . . . الامر الذي جعلني اشك بأن « فرحان وابو مشهور » ما زالا على قيد الحياة ، فلو حصل وكانا في عداد القتلى لصرحت الاذاعة بذلك تظاهرا منها بالقضاء على قادة المنطقـــة . . . ولكن

افتراضي هذا تطاير مع الريح بعد لحظات قليلة ، فربما لم يعترف الرفاق الاحياء بأسماء قادتهم الذين سقطوا ، وظل الامر مبهما .

في الظهيرة جاءني عسكري في خيمتي يستدعيني لمقابلة الضابط « قائد القطاع » . ذهبت اليه ، كان يحتسي قهوته ببطء ... وقف يحييني ومد يده لمصافحتي بأدب ثم ابلغني ان قيادته وافقت على نقل معسكراتنا تحت شرط واحد هو : ان اتعهد انا باسم قيادة التنظيم بعدم القيام بأية عملية دون اذن مسبق .

ـ تعرفين ان هذا يورطنا في حرب لسنا مستعدين لهـا .

قال الضباط ذلك وهو يمد يده لي ليسلمني الموافقة الخطية لقيادته . شكرته وهممت بالانصراف عندما استوقفني قائـلا :

ـ لو كنت مكان قيادتكم لحاولت الحفاظ على حياتك بشكل افضل . لقد تحولت الى رمز ومن الخطأ تعريضك للموت بسهولة .

مرة اخرى يعود « ابو مشهور » ليؤكد لي بكل بساطة صدق احساسه . ابتسمت مجاملة الضباط وخرجت .

دخلت على رفاقي في الخيمة الاخرى وقد بدا التعب على جباههم وعيونهم واجسادهم . ابلغتهم بموافقة « قيادة الجيش النظامي » على تغيير مواقعنا العسكرية ... فرحنا جميعا ثم غادرنا المكان مودعين الجنود الذين اهتموا بنا وقدموا لنا الطعام والشراب ثم ناقشونا مطولا في قضية : « عروبة الثورة » ... اتجهنا الى حران ، فقد كان علي

ان اقدم تقريرا مفصلا عما حصل في القطاع الشمالي ، اذ ان القضية في منتهى الخطورة . فخسارة أثنين من افضل مقاتلينا ... بل من قيادة تنظيمنا العسكري وضعتنا في موقع حرج لا سيما في تلك المرحلة من عمر الثورة .

كنت قلعة حزن صامتة في طريقي الى « حران » ، فقد فقدت صديقي قبل يوم فقط دون ان يكون لي الحق بالحزن ... الحزن ترف لا يقدر عليه اناس مثلنا . لم استطع تخيل وجه « ابو مشهور » ساعة سقط في ايديهم ... لم أستطع فهم قصده عندما قال لي قبل الرحيل : المعركة أكثر تعقيدا مما نظن . هل كان يعرف انه لن يعود ؟ وهل خاطر حقا بحياته وحياة رفاقه في عملية لم تكن نتائجها مضمونة ؟ اذا كانت المسألة هكذا فعلينا ان نفهم المسائل بشكل اخر ... علينا ادانته .

كل هذه الاسئلة ، يا فرانك ، سكنت رأسي ولم اجد لها جوابا ... الليل في اخره ... اعشق « ابو مشهور » وأنتظـــر عودته .

في مساء اليوم اجتمعت الى المجلس العسكري لمناقشة ما حصل . كنت متهمة في نظر أكثر الاعضاء حتي أن نايف طلب محاكمتي بعد الاستماع الى تقريري الخاص بالعملية .

لقد ارتكبت خطيئتين :

الاولى : سفري الى الشمال دون اذن القيادة مـــع مخالفة قرارها السابق بعدم العودة الى القواعد .

الثانية : عدم اعلامهم بنتائج العملية مباشرة وتاخري حتى اليوم التالي .

كان عصام اكثرهم حدة أثناء الاجتماع . كانت كلماته تتفجر من فمه :

ــ ليست المقاومة شعرا يا نادية ، المقاومة احترام الاوامر العليا ، لا يمكن لنا ان نكون مزاجيين في قضايا كهذه .

ورددت على عصام بحدة ... ذكرته بما قبل الخامس من حزيران ... ذكرته بالايام الصعبة ، وذكرتهم جميعا بالاخطاء التي نرتكبها ويمكن لها أن تؤدي بنا الى الهلاك .

ــ لست قديسة انا ، اعرف انني اخطأت ، لكنني كنت اخشى الاستمرار دون ان تتاح لي ممارسة حقيقية للنضال .

عبرنا الى المرحلة الثانية وناقشت معهم خطة العملية وظروفها ونتائج الاستطلاعات السابقة التي قام بها الرفاق قبل مرحلة التنفيذ . شرحت لهم انني لم أكن مقتنعة تماما بالخطة ، وان الاستطلاعات التي اجريت لم تكن كافية لخوض عملية كتلك التي ألقينا فيها بكل ثقلنا العسكري .

لم تلق آرائي ترحيبا بينهم ... انقبض وجه صالح وسمعت نايف يقول :

ــ كان لا بد من اجراء العملية قبل انعقاد « المجلس الوطني » حتى نستطيع فرض انفسنا على فصائل المقاومة.

واسقط في يدي ، اختلطت لدقائق الوجوه والاصوات ... بدا لي وجه نايف قناعا ثمينا يمكن طبع آلاف النسخ منه وتوزيعها على الحكام لعرب ليلبسوها ايام الاحتفالات الرسمية والاعياد ... ما الفرق بيننا وبين الحكام ؟ السمك

الصغير لصالح السمك الكبير . وقذف خمسة عشر مقاتلا مرة واحدة الى الموت من اجل كسب اصوات في « المجلس الوطني ». جريمـــة ، لكنها جريمة مبـــررة باسم التكتيك والاستراتيجية ، والنتيجة واحدة .

لفظوا قرارهم في حقي : نقلي الى « عينتاب » للعمل في احد مكاتب المنظمة كمسؤولة اعلام ، والسجن لمدة عشرة ايام لمخالفتي قرار القيادة بذهابي الـــى القواعد دون اذن مســـبق .

ذهبت الى السجـــن في اليوم التالـــي لتمضية فترة العقوبة . كان عبارة عن غرفة صغيرة مليئة بالكتب ملحقة بأحد معسكراتنا في « وادي موسى » . استقبلني احـــد المقاتلين ضاحكا وادخلني الى حجرة صغيرة ثم اغلق الباب خلفي قائلا :

ـــ رفيقة نادية ! عليك بالصبر وقراءة اصل الاسرة والملكية الخاصة .

لم اكن ناقمة لكنني كنت حزينة لنقلي الى ساحـــة اخرى بعيدة عن المعسكرات والمقاتلين . وفهمت يومذاك بأن الرفاق قد قرروا زرعي مـــن جديد في شـــوارع المدن العربية الميتة بعد الخامس من حزيران ... تحويلي الى مادة استهلاك رخيصة للصحافيين والصحف ... عودتي للقاء من جديد بمثقفي مقاهي « عينتاب » الذين نسيتهم في لحظات الفعل .

في السجـــن اكتشفت انني قد طعنـــت شخصيا في الصميم ، وان موت او اسر « ابو مشهور » في تلك المرحلة خسارة كبيرة لنا . لقـــد كان من افضل وانقـــى كوادرنا العســـكرية .

في السجن جاءني وجهه مرتسما على صفحات الكتب ... على وجه حارسي المقاتل ... على النافذة التي تنقل لي شعاع النهار . وادركت انني احبه . تذكرت ايام جنيف ونحن جسدان في سرير واحد والثلوج تغطي بحيرة « ليما » في الخارج ... تذكرت ترددة الطويل حول جدوى عملياتنا الخارجية ... تذكرت وجهه في الطائرة وهو يهمس لي : « ان عدنا سالمين سأظل احبك » .

تذكرت وداعه لي ليلة العملية وقبلته على جبيني ... يا الهي كم هو صعب ان نعشق مقاتلا !

خلال فترة السجن قرأت كثيرا ونمت قليلا ... قرأت مذكرات « تشي » عن الحرب الكوبية : ووقفت مطولا امام المقاطع التي يتحدث فيها عن طبيعة العلاقة التي كانت تجمعهم بالسكان في منطقة « السيرامايسترا » ، تلك العلاقة الايجابية التي ساعدتهم على الاستمرار في معاركهم حتى النهاية . تذكرت ان علاقتنا بالجماهير الفلسطينية لم تكن حتى تلك اللحظات علاقة قوية ... كنا نحرص على التوجه لهم بالاسلوب الذي نتوجه به الى الصحف ... مبالغات حقيقية حول امكانياتنا وحجمنا الحقيقي ... واكتشفت ان الاعلام سيتيح لي فرصة تغيير هذا النوع من التوجه) .

باريس ١٩٧٧

جدران غرفتي ... حائطي ... خارطة الوطن ... صورة امي وابي .. انت ... صورة « ابو مشهور » في الذاكرة ... رفاقي جميعا . الجدار يهتز وصداع حاد يهاجمني في هذه الساعة .

الحشرة ترسل بأزيزها وانا سجينة أوراقي ورغبتي بالهرب الى مكان ما على وجه الارض ، حيث لا حشرات ولا وطن ولا ذكريات .

تمزقني الاصوات والذكريات ... تعذبني الريح في الخارج ... اين انت يا فرانك ؟ تذكر بعض جنوني ... تذكر بعض هربي من كل هذه الاشياء ، كنت ألجأ اليك واطلب قليلا من الحنان .

مرة ، أتيتك في اواخر الليل أجر اشلائي هاربة من الحشرة ... من ذاتي . صعدت الطوابق السبعة لبيتك... توقفت امام الباب الخشبي لاهثة متجاهلة أصوات الكلاب والفئران في الشقق المدفأة جيدا ... قرعت الباب بشدة ففتحت لي . عندما لمحت وجهي في ضوء الممر مددت يدك تساعدني على تجاوز العتبة ونظرة استغراب تطل من عينيك:

— ما الذي جاء بك ؟ فرحة انت ام حزينة ؟

عبرت الممر واتجهت الى المقعد المقابل لمكتبك ... دائما كان يحلو لي ان القي بنفسي عليه .. مرت بنا اللحظات وانت تحدق بي وجثة ذكرياتك تنتشر أوراقا على الطاولة . سألتك :

— اما زلت تكتب ؟

— اتم روايتي ، علي ان اسلمها لدار النشر قبل نهاية هذا الشهر .

— هل تتحدث عن الثورات والنضال والمقاتلين ؟

— اتحدث عنك ايضا .

دهشت :

— عني ! لماذا ؟

ـــ أوه ، لماذا ؟ لماذا ؟ لست ادرك ، حاولت ان اجمع بينك وبينهم .

ـــ اما زلت تحلم برفاقك القدماء ؟ المسافات بينكم شاسعة الان ، أليس كذلك ؟

ـــ أحلم بهم ، اكتب عنهم . لا خيار لي ، انا معهم براسي ، وجسدي هنا .

ـــ ولماذا لا تعود اليهم ؟

ـــ هذا مستحيل ، لا مكان لي هناك ... انا هنا في بلدي حيث لا يسألني احد من اين اتيت ، بل يجهدون انفسهم لمعرفة اسم عائلتي والمدينة التي ربتني .

ـــ لقد هجرت دور الخبير والمستشار يا عزيزي فرانك !

يمر الصمت بيننا ، نقاتل اللحظة لننسى ، يا أساطير النسيان ... يا حاجتنا للاساطير ! آه يا فرانك ... كم شعرت في تلك اللحظة بقذارتنا ... احسست أن اجسادنا لا تستحق حمل رؤوسنا ... لم اسألك عن موضوع روايتك ، انا اعرف تماما ماذا يدور في راسك .. نهرب معا الى الحب ... نهرب معا وكالمادة الى جسدينا : جثتان نتنتان ، وليس اقل ولا اكثر من ذلك .

تمطر في الخارج ... تمطر وانا قلعة نسيان ... ارتجف على الارصفة رافضة عودتي الى الجدران الاربعة.

الحشرة في البيت ، الحشرة ترافقني اينما اتجهت . عذاب حقيقي يستيقظ في جسدي وانا اسمعها تغني ... اهرب ... اهرب ، الجأ الى صديقي « السفير الغاضب »

الاتي من بلاد النوم والحر ، واحاول ان احدثه عنها ... عنك ... عن الله . لكنه هو الاخر يهرب مني الى اللـــه وزوجتيه الاثنتين وقبيلة اطفاله ، ونمارس معا لعبة الهرب انى اشياء اخرى وعالم اخر .

مضى الليل ، باريس امام صباحات البرد والحـــب تتنفس ببطء وكأنها أعلنت سأمها من كل شيء . كانـــت سوداء ، كوجهي . في المساء تدخل قصتنا عامهـــا الاول وتكون الحشرة قد استيقظت منذ شهور . كم اتمنى ان اعود الى بيتي فأجدها قد هجرتني ! او اصيبت بالخرس ... بفقدان الذاكرة ، بالموت ... كم اتمنى لو انها ماتت !. لماذا تركتني وحيدة في باريس ورحلت ؟

فرانك ، انني خائفة ...

قبلك ، كنت قد ادمنـــت غربتي ونســيـــت الرفاق او تناسيتهم . قبلك رفضت لقاءهم في باريس ... هربت من سماع اخبارهم ... حاولت ان اتصالح مع الزمن والاشياء واقبل حياة عادية لامرأة ... قبلك ... لنقف هنا ... يكفي ، لنبدأ من جديد .

(كنت زوجة ، هذا ما أتذكـــره الان . ثم ذلك دون مقدمات ، وبعد رحيلي عن « حران » الى « عينتاب » . قال رفاقي هنـــاك :

« عليك باجراء عملية جراحية تغير قليلا من ملامحك، وجهك غدا معروفا و « عينتاب » مدينة مفتوحة للبحـــر والسواح والحشيش ، امكانية حراستك الدائمـــة مسألة صعبة » .

لقد غدوت عبئا على رفاقي ! وذهبت برفقة احد رفاقي الاطباء الى عيادته ... عيادة زوجي السابق . وكان اشهر طبيب تجميل . حدثناه عن رغبتي باجراء العملية شارحين له صعوبات ان ابقى بوجهي الحقيقي (لم يكن بامكانـــي حمل وجهي الحقيقي) .

أذكره الان بشيء من الحنان .

في الاربعين من عمره ينتمي الى عائلة وطنية وعريقة من اسر الجنوب ، عاد آلى بلاده من اوروبا بعد ان امضى عشر سنوات لاتمام دراسته ... حاول ان يزرع نفسه في تربة الوطن من جديد ، فوجد انه دون جذور ... دخلت عيادته في اليوم التالي ، وكنت ما ازال اعاني من اثر انهيار عصبي اصبت به في الايام الاخيرة من فترة السجن ، الامر الذي جعلني افقد الكثير من وزني وأبدو عصبية ممزقة . عندما استرحت على مقعد مقابل لمكتبه ، حاولت ان اشرح له اهمية ان يبقى الامر سرا بيننا ، ترك المكتب وانتقـــل الى جانبي ، وضع يده على فمي محاولا اسكاتي :

ـــ لقد سمعت عنك كثيرا ولم اكن اعرف انك ما تزال لاول مقاتلة ، ستتم الامور بسرعة .

ابتسمت ارد على مجاملته :

ـــ لقد سمعت عنك كثيرا ولم اكن عرف انك ما تزال شـــابا .

ضحك ، ثم تركني وغاب دقائق ليعود بمجموعة صور لانوف كثيرة ... انوف مدببة وحادة . انوف صغيرة ومستقرة بهدوء في وسط وجوه يطبعها الفرح ... انوف مستطيلة... قال لي :

ـــ اختاري انفك ...

اضحكتني الفكـــرة .

ـــ هل سأغير انفي ؟

ـــ ماذا تظنين ؟ اننا لا نستطيع ان نغير شيئا آخـــر في وجهـــك .

ـــ وسأظل قادرة على شم رائحة الياسمين والبارود والانظمة العربية ؟

أضحكته عبارتي الاخيرة :

ـــ لن اضمن رائحة الياسمين ، لكنني اؤكد لك الثانية والثالثة ... الثالثة خصوصا !

امسك بيدي فلاحظ انني كنت ارتعش قليلا ، اخافتني فكرة تغيير انفي ، قال لي :

ـــ لا تخافي ، لقد عهدناك شجاعة ، سيتم الامـــر بسرعة .

صحبني الى طاولة العمليات ، ورايت وليمة المقصات والمباضع والضمادات ... مددني تحـت الاضواء الكثيرة المسلطة على وجهي وانتظرنا وصول احد رفاقي الاطبـــاء ليقوم بمهمة تخديري .

رغبة ما بالانتماء الى شيء غير الموت والرفاق السريين هاجمتني في اللحظات التي سبقت اجراء العملية ... كان وجهه يضيء الغرفة ... اشعرني هـــدوؤه بحاجتي الى الانتسـاب ... الى الانتماء المؤقت لعاصفة ما ... لرحلة في قطار ... لرائحة عطر بري قادم من غابات بدائية . جرى الامر بسرعة كبيرة ... لست ادري كيف ؟ لكن الرفيق الطبيب قال لي فيما بعد انه شعر بأنني كنت سعيدة جدا للتخلص من انفي الذي ازكمته الحرب ورائحة الجثث والانظمة العربيـــة .

استفقت على الم حاد في وجهـــي ... احسست ان اعصابي كلها مركزة به ، حاولت ان لا اصرخ ولا اشتكي . جاء الي في المساء واعطاني حقنة مخدرة ثم طلب الي النوم وقبل ان يغادر الحجرة عاد من جديد وجلس على طرف السرير :

ـــ لقد كنت هادئة جدا اثناء العملية ، يا الهي اية اعصاب تحملين !

سمعت ضحكتي تصطدم بالجدران البيضاء وترتد الي . اية اعصاب تلك التي احملها ؟ ما مر قد مر ، وما مضى قد مضى ... حزيران جعل مني قلعة صمود ، واكتشفت ان الحـــرب لم تكن سكينا فحســـب بل كانت القـــدرة على الاستمرار .

مضت ايامي في المستشفى ووجهه لا يفارقني . كان يأتيني في الصباح ليغير ضماداتي ، ثم يعودني المساء فيحكي لي عن تعب يومه .

ذات يوم ، وكنت قد استعدت بعض حيوتي ، اخـــذ بيدي وجلس على حافة السرير .

ـــ تعرفين ... لقد مرت العملية بسهولة لم اكن اتوقعها ... كنت تتأوهين قليلا .

ـــ هل استعصيت على المخدر ؟

ـــ الى حد ما . حديثني عن حياتك ، لقد عرفت من الصحف أنك كنت شاعرة ، أما زلت تكتبين الشعر ؟

ذكرني سؤاله بعالم نسيته ... الشعر ؟ صحيح لقد كنت شاعرة قبل ان التحق بصفوفهم .

اجبتـــه :

ـ لقـد هجرت الشعر . انني احاول ان اعيشـه بينهم .

لم تبد القناعة على وجهه ... استمر بمسح ظاهر يدي ... استسلمت لشعور غريب . شعور مسافر مخدر على وجه موجة .

ـ يقولون أنك من اصل غير عربي ، هل هذا صحيح ؟

هززت رأسي بالايجاب ، ان انتساب الدم يلاحقني ابـدا .

ـ انا من اصل كردي ، بل والدي

ـ وكيف قررت اللحاق بهم ؟ اقصد ...

ردني سؤاله الى طفولتي ، الى يوم اكتشافي الاول لكوني انتمي لأمة غير تلك التي اقاتل من اجلها ... تذكرت وجه جدتي ولغتها الغريبة ... كلمات ابي وهو يمازحني بعد أن انتميت الى اكثر الاحزاب القومية العربية تعصبا ... اكتشافي شعر سليمان العيسى ... هززت راسي قليـلا وانا اجيبه :

ـ ما الفرق ان اكون من اصل عربي او غير عربي ؟ لقد عشت بينكم ولا اعرف لي انتماء آخـر ، اللغة ... التاريخ ... والوجوه التي رافقت طفولتي .

ظل الحديث مستمرا .

ـ يقولون انك اميرة كردية . اهذا صحيح ؟

ابتسمت : الاساطير مرة اخرى !

ـ اميرة ؟ لا ادري ... والدي كان حريصـا على شجرة عائلته .. عليك ان تسأله عن ذلك ... المسـألة لا تعنيني اكثر من عدد سكان جاكارتا .

ايامي في المستشفى جعلتني احس بقربي من ذلك الوجه الهادىء المطمئن ... رفقته لي في الساعات التي تبقى له من عيادته زرعت في داخلي عاطفة اقرب الى الحرص على الحياة نفسها ... كنت راغبة بالحياة بعد ان عرفت الموت وجاء الي يحمل الحياة على كفيه . بعد خروجي من المستشفى بأيام تزوجت من « خالد » ، وانتقلت لأعيش معه في احدى المقصورات القريبة من مدخل عينتاب .

يومذاك ، تحدث الرفاق طويلا عن زواجي واعتبروه هربا من مواجهة الصعوبات التي كانت تطالعنا في ساحة « عينتاب » . حاولت ان لا يكون الزواج عائقا بيني وبين المهام الموكلة الي ... كنت اقضي نهاري بطوله في احد المخيمات ، اقرأ الصحف ... اتلقى الشيفرات والرسائل... اعيد صياغة التقارير السياسية التي ارسل بها الى القيادة في « حران » ، أستقبل الصحافيين والزوار الاجانب ... ارافقهم الى المعسكرات ... وفي المساء اعود الى بيتي فأمارس دوري بهدوء . امرأة ... امرأة اطهو الطعام واهتم بالاشياء الصغيرة ، ومعا في المساء نقرأ بعض الكتب ونستمع الى « فاغنر » . كنت عاشقة « فاغنر » . لم اكن اشعر بأي تناقض او تمزق ... كنت امارس دوري بهدوء مطلق واطمئنان لا ادري من اين جاءني وسط زوبعة القلق التي تخيم على ساحات القتال .

لاول مرة ، وبعد غياب سنتين عن اهلي ، جاءت امي الى « عينتاب » واستقرت معي في البيت الواسع ، بعد ايام لحق بها ابي وكنت في غاية السعادة لرؤيتهما . واحسست بعد سنة ونصف من التشرد بلذة الحياة العائلية .

— أكنت تحبينه ؟

ـــ كنت معه فقط بانتظار « ابو مشهور » .

نحدق في وجهي باستغراب وتسألني :

ـــ ومن هو « ابو مشهور » ؟

انذكر انه لا يحق لي الحديث عنه :

ـــ اوه صديق قديم .

ـــ ولماذا تزوجته اذا ؟

ـــ كف عن اسئلتك ، وحاول ان تدع لي قليـــلا من الســـلام .

لقد حاول كثيرا ان يقودني الى الحياة « الطبيعية » ـــ كما كان يقول ـــ والحياة الطبيعية بالنسبة له : البيت وحفلات المساء ، الدعوات والرحلات ... لم يكن يعني ان كل هذه الاشياء لم تعد تعني لي شيئا ، ومع ذلك فقد مضت الاشهر الاولى بسلام .

ذات يوم كنت انتقل من مكتبي في المخيم عائدة الى البيت ، فشعرت بدوار خفيف في راسي . وتذكرت ان العادة الشهرية قد تأخرت خمسة ايام . كان الى جانبي وخفت ان اخبره بذلك لانني كنت اعرف الى اي مدى يرغب بأن يكون له طفل ، ومن جهتي لم اكن قد اتخذت قراري بعد .

في المساء اخبرت امي بذلك فبدا عليها فرح حقيقي ، وقالت لي :

ـــ احتفظي بالطفل ، لا تنسي انـــك الآن في الثامنة والعشرين وزوجك في الاربعين .

ظللت صامتة ، كان علي ان افكر قليلا بالامر ، ماذا يعني ان اكون اما ؟ هل انا قادرة ضمن الشـــروط التي اعيشها ان امنحه طفلا ؟

عندما اخبرته بعد طول تردد بدا بدائيا ومحبا ، وبعد لحظات صمت طلب الي مباشرة ان اخفف من عملي في مكتب اعلام المنظمة واحاول التفرغ قليلا لنفسي .

وقعت عباراته على راسي كصاعقة ... ذكرتني بما نسيت من حياتي واشيائي وواقعي . علي ان اتحول الى امرأة تنتظر طفلا ، وخلال الانتظار تعيش امرأة ... وطرح السؤال علي : وعملي في المنظمة ، دوري كمقاتلة ، مشاركتي في حياتهم ... كل هذه الاشياء ليست بكافية لجعلي امرأة ؟

بعد ايام جاءني « خالد » في مكتبي بالمخيم ، وكانت المرة الاولى التي يزورني فيها هناك . وسط الصحف وآلات السحب ... وسط الحبر وضجيج جهاز الاستماع طلب الي ان اخفف من نشاطي واتوقف عن متابعة التدريب العسكري الذي حرصت على الاستمرار فيه لمدة ساعتين كل يوم ... كنت ارفض الاستسلام والصدأ ، فالمقاتل — وانت تعرف ذلك — كالسلاح اذا لم تعتن به يتآكل بسرعة . احساس بالخيبة والحيرة استبد بي ورأيت وجهه غريبا . يا الهي ! لماذا هاجمتني الرغبة بالانتماء والدخول في رهان الحياة العادية ؟

لم اعد ملكا لنفسي .

دوت هذه العبارة في راسي وحدقت في وجهه جيدا . لاول مرة اشعر بغربتي عنه ... مسافران في قطار ربما ينتظران اول محطة ليفترقا .

قبله ... اي قبل الزواج والبيت والحمل ، كنت اتصور ان العودة في المساء الى صدر رجل ستعيد لي الكثير من التوازن الذي يساعدني على الاستمرار واضحة وصريحة .

فحياتي في السابق كانت مغامرة جميلة متعبة احيانا . لـــم يخطر لي ابدا وانا اطوف موانىء اوروبا باحثة عن الثورة ان اليوم سيأتي واختار بين دوري الطبيعي وحياتي الحقيقية. استسلمت قليلا للراحة ... حاولت ان اخفف ساعات تدريبي واقتصرت على ساعة يوميا اختصرتها في الشهر الثاني الى نصف ساعة الى ان كان ايلول .

انفجرت المعركة فجأة في « حران » ... في سهول الشمال ... في كل مكان من الساحة التي تركتهـــا ، وبدا الرفاق يصلون تبـــاعا الى « عينتاب » واشتعلت المـــدن العربيـــة .

ازداد حجم العمل في قسم الاعلام وبدأت الاحـــــداث تتلاحق بسرعة غريبة ، وتطلب ذلك ان انقطـــع للعمل في مكتبي بعيدة عن البيت ... كنت انام هناك واكتب ... الاحق الاخبار ووكالات الانباء العالمية ... ادرس كافة التقـــارير الواردة الينا من القيادة والتي تؤكد على قوة موقعنا وصلابة مقاتلينا . وعلى مرور الايام ، تراكمت جثـــث المقاتلين في شوارع « حران » تحت صمت العالم كله . ونسيت آنذاك الجنين الذي في بطني ... نسيت انني زوجة وان لي بيتا ورجلا واهلا . نسيت انني انتمي الى الحياة اليومية العادية في شوارع « عينتاب » وسكنت مكتبي في المخيم . ضاعفت ساعات التدريب وخوف كبير يسيطر علي من انتقـــال الشرارة من « حران » الى « عينتاب » ... عدوى القتل والتشريد ... عدوى الصمت على كل ما حصل .

كان « خالد » يتصل بي كل صباح ويسألني عمـــا اذا كنت ارغب في العشاء معه في البيت . اي بيت وسط الدم ؟

اي حب وأي زوج ؟.. سكين حزيران تحولت الى قنـــابل ورصاص في ايلول ولم يعد الصمت ممكنا ... لم تعد الحياة ممكنة ... وبيانات الدول والمؤسسات الرسمية تصـــرخ بتفاهتها في وجه الاطفال الذين احترقوا .

تتالت الاحداث : حوصرت « حـــــران » ، حوصرت معسكرات الشمال ... حوصر الرفاق في المخابىء وجاءتني رائحة الجثث مع الريح وكلمات المسافرين . العائدون الينـــا احياء من بعض المعارك حملوا جراحهم وخيبتهم واتجهـــوا الى المخابىء ، وكنت انتظر ابدا ان تحصل معجزة تنقذ مـــا تبقى منهم هناك . الدماء غسلت كل شيء ... الدماء غسلت انتظاري وأملي وادركت قساوة ان نعيش في هذا العصر .

في اليوم الرابع عشر لبدء المعارك تلقيت برقية من القيادة تطلب فيها الي اعداد مخابىء كافية في « عينتاب » حتـــــى يستطيع أعضاء المكتب السياسي الانتقال اليها . كانت المهمة في غاية الصعوبة ، فالبلاد تعيش هي الاخرى تناقضات لا حد لها . وقد توقشت مسألة تواجدنا على ساحتها قبل ايام في المجلس النيابي . في المساء اجريت اتصالا هاتفيا بوالـــــد زوجي الذي كان في الجنوب وطلبت اليه ان يســـاعدني على ايجاد مخابىء للرفاق ... تردد كثيرا قبل ان يعرض علـــي انتقالهم الى احدى قرى الجنوب قريبا من الحدود حيث يمكن حمايتهم في حالة نشوب اية انفجارات في « عينتاب » وقبلت الفكرة ثم اتجهت بسيارتي الى الحدود التي تفصلنا عن ساحة المعركة بانتظار مقدمهم . بعـــد ســـاعة وصل « صالح » و « محمد » ولم يكن عصام برفقتهما... ركبنا السيارة باتجاه « عينتاب » وكانت يداي ترتجفان على المقود وانا اعبر سهول البقاع . نظرت الى وجوههم المتعبـــة ... ولحاهم الطويلة

... شممت رائحة عرقهم المختلطة بالارض ورائحة البارود. وتذكرت بقهر — بل بحقد — رغبتي بأن اكون أما . لمـــاذا تلك الرغبة المجنونة ، لماذا ؟ ان اكون اما في اللحظة التـــي يقتلون فيها وتتشرد اطفالهم ؟.. ان القي للعالم العربـــي بمشرد جديد ... لماذا لم اخجل من ذلك في الماضي ؟ فجـــأة هاجمتني الرغبة بالتخلي عن الجنين .. شعرت بأن العار يسكنني وعلي ان اتخلص منه ، وفهمـــت ان العلاقـــات الطبيعية في جو غير طبيعي تجعلنا نبدو مضحكين بطبيعتنا . هل يمكن ان اكون أما صريحة واضحة وفعالة ... صلة وصل بين ابي وابني ... متواضعة وصامتة لا يسألني أحد لماذا اخترت لحظة العار لأحبل بالعار ...

سألني « صالح » يومذاك ، وكنا لم نلتق منذ انفصالي عنهم في « حران » :

— هل انت سعيدة في زواجك ؟ لقد علمنا انك حامل ، يسعدنا كثيرا ان يكون لك طفل ..

اجتاحنـــي موجـــة خجـــل عميـــق مـــن نفســـي وانـــا اتذكـــر ان صـــالح قـــد ودع اطفالـــه فـــي نابلس ولم يعد لهم ابدا . بذلت جهدا كبيرا لكي ابدو طبيعية وهادئة دون ان اسمح لهم بادراك الهوة التي انا فيها ، والتناقض الذي احياه . والتفت الى صالح لأبدد اللحظة المقيتة :

— نعم يا صالح ، لقد وافقت اخيرا على ان اعود اما .

كان الطريق الى « عينتاب » متعرجا ويمر عبر الجبال ... يداي على مقود السيارة تتراخيان ... وجهي غارق في عتمة المستقبل ... اي مستقبل ينتظرنا ؟

على ضوء مصابيح الشارع لمحت ورما حـــول عين صالح اليمنى . اوقفت السيارة وتوجهت اليه بكليتي ...

مددت يدي أتحسس وجهه والهالة الزرقاء حول عينه وسألته اذا كان يرغب آن اتجه به الى البيت ليجري له زوجي فحصا سريعا . ولم اكن قد لاحظت ان « محمد » قد فقد ذراعه وانه يغطي مكانها بسترته العسكرية . لاحظ الرفيقان المفاجـأة التي اصبت بها وحاولا جاهدين وبشجاعة التخفيف عني .
مازحنـي محمـد :

ـ نادية ... لقد كبرت قليلا ؛ يبدو ان الاستقـرار والزواج لا يتفقان وطبعـك ...

ظللـت صامتـة امـام ممازحتـه ، فلـم يكـن لدي مـا اقوله ... استنجـدت بشـجاعتي . حاولـت ان امنح نفسي الحياة وتذكرت ان الحياة لا تمنح اذا لـم نوافق على آلموت الكبير . لقد كف الموت منذ زمن على ان يرهبني ، واعتبرته قضية عادية يمكن ان تفاجئني في ايـة لحظة : اصطدام سيارتين ... عبور شارع ... رصاصة طائشة ... لا بد وان المعركة ستكون طويلة ولدي متسع من الوقت .

حين وصلنا عينتاب ، اتجهت مباشرة الى البيت مرورا بالمقاصير المدفأة جيدا... بالانوار المشعـة . رأيت آلاف الوجوه التي تسكنها وقد تحولت الى قتلة ، وجوه تغـرق في الويسكي والعطور وبقايا حسنات البترول ، والى جانبي في السيارة الوجوه الحقيقية لمقاتلين اختاروا الرفض والموت من اجل الحياة نفسها . توقفت امام بيتي ، هبطت مـن السيارة ، وعبرنا الحديقة المؤدية الـى الطابق الاول ، احسست ان قدمي لم تعودا قادرتين على حملي ... حرارة رهيبة تجتاح جسدي ... رآني خالد من النافذة ، فأسرع باتجاهي واخذني بين ذراعيـه . اسندت راسي الى كتفه

وهاجمتني رغبة حادة بالبكاء . كنت اعود الى بيتي بعد خمسة عشر يوما من الغياب اي منذ بدء المعركة في « حران » . دخلنا جميعا الى الصالة التي حرص زوجي يوم فرشها على انتقاء افخر الاثاث واجمله ، اطلت الاشياء من عيني تافهة وحقيرة ... اطلت ثروته في تلك اللحظة جثة نتنة . وتطلعت الى وجوههم . وطني هناك ولماذا ابحث بعيدا ؟ لم اجرؤ على ان اسالهم عن عدد خسائرنا . فقد احسست ان هنـــاك سرا ما يخفونه عني ... لم اسألهم عن عصام ونايف ... كنت اعرف من الصحف انهم محاصرون منذ ثلاثة ايـــام في احد بيوت « حران » وما زالوا يقاتلون .

بدونا صامتين كمشيعين في جنازة ... خالد ينظر الي ثم ينتقل بعينيه اليهم ويطرق الى الارض . دخلت امي علينا تحمل فناجين القهوة ، اسرعت نحوها احاول مساعدتها ، قبلتني وانفجرت باكية ...

ـــ انا هنا ، لماذا تبكين ؟ ما الذي حصل ؟

تركتني وعادت الى غرفتها وصمت تام يحط علـــى رؤوسنا جميعـــا .

على طاولة العشاء حدثني « صالح »عن قساوة المعارك الدائرة في « حران » واخبرني بعد تردد ان : « ام العبد » قد استشـهدت امام مكتب المنظمة . توقفت عن الطعام وحدقت في وجهه بجمود ... وجهها المدور وجسدها الممتلىء ... صوتها الجهوري وهي تحكي لي عن رحيلهم من القدس ... حلمها بأن يتحد الفلسطينيون ... كل ذلك قد انتهى ؟ وتذكرت شجاعتها وبساطتها ، حاولت ان لا ابكي .

انصرف الرفاق بعد آن تواعدنا على اللقاء في اليـــوم التالي ووجدت نفسي امام زوجي وامي وابي ... امـــام

الحياة الطبيعية اليومية ، امام معسكر الهدوء والتـــرف . لم يحاولوا مناقشتي ابدا ... ظلوا صامتين ، نظرت اليهم جميعا وتمنيت آن يقولوا اي شيء ، توجهت بالحديث الى زوجـــــي :

ـــ قل لي يا خالد : الا تعتقد ان تواجدهم هنا سيفجر الكثير من المشـاكل ؟

ظل صـامتـــا .

ـــ لم تجبني ، هل تعرف ان صالح ونايف ما يـــزالان محاصرين ؟..

ظـــل صامتـــا .

ـــ لماذا لا تتكلـــم ؟

مد يده يساعدني على الوقوف واتجهنا الـــى غرفـــة النـــــوم .

عندما شممت رائحة فراشي النظيفة بعد تلك الايـــام شعرت بشيء من الهدوء ... حاولت ان اشرح لزوجي اهمية ان ينتصر الرفاق في « حران » ... ان يتوقف الرصاص عن تمزيق اجسادهم . وظل صامتا . احسست ان جـــــدران الغربة التي عشتها حياتي كلها قد ارتفعت بيننا ولـــم يعـــد ينفع ان نعيش لحظات سقوط الاشياء . قررت ان انـــاقشه في قضية أستمرارنا معا ، لكنني شعرت في تلك اللحظة بألم حاد في البطن واحسست راسي يشتعل نارا . حاولت ان اغالب الالم لكن كان اشد من ان يكتم ، ولم اكن قد لاحظت تورم جسدي خلال الايام الاخيرة ... ثوان مضت ورايـــت الدميغسل كل شيء ولم أعد اعي .

مرت ايام ثلاثة وانا ملقاة في مستشفى الجامعة الاميركية

انازع الموت والحياة عقب عملية اجهاض قرر الاطباء ضرورتها بعد ان اكتشفوا ان الجنين قد مات في بطني قبل عشرة ايام .

فتحت عيني على وجهه الى جانبي ... وجه امي ... وجه ابي . ولم اكن قادرة على البكاء ولا حتى على الالم ... لقد غادرني الفرح منذ زمن ، والماضي يبدو حاضرا في ذاكرتي، بينما ينام المستقبل تحت ستار من الخوف وانتظار الموت .

مكثت عشرة ايام في المستشفى ثم خرجت الى البيت منهارة تماما . ارتميت في فراشي السلام والثروة كخرقة استرجع ذكرى الايام الاخيرة التي قضيتها في المخيم واشعر بسلام غامض ومؤقت ، كتلك السكينة التي تسكن روح المحكومين بالاعدام قبل الشنق بدقائق . لابد وان قتلى كثيرين كانوا يتمددون في تلك الايام على ارصفة « حران » ، بعضهم يتعذب ولم تفارقه روحه بعد . لا سيارات اسعاف ولا اطباء ولا اسرة نظيفة . هل جرحت ام العبد ثم ماتت من اثر جروحها ؟ ام انها انتظرت ثلاثة ايام واربعة قبل ان تلفظ انفاسها ، دون ان يجرؤ احد على الاقتراب من جسدها خوفا من الرصاص ؟. هل استطاع نايف الهرب ام ما زال سجين الاقبية هناك ؟ كنت اتعب من اسئلتي وعندما لا اصل الى اجابة انهض من سريري واتجول في غرف البيت كلها بحثا عن امي ، وعندما اجدها في حجرة الجلوس ، تتطلع الى السماء بعينيها ، اسند راسي الى صدرها وانحب كالاطفال ... انهض من جديد وادور في ارجاء البيت مذهولة ... المح على الجدران عيونا كثيرة لاطفال اختنقوا تحت رماد الحرائق ... اسمع انينهم الموجع وكأنهم يرغبون بالشكوى ... اركض احيانا وامد يدي لالمسهم فأقع على الجدران الباردة . قلقت امي كثيرا بعد ان ازدادت نزهاتي اليومية في انحاء

البيت وحكت ذلك لزوجي ... جاءني في احد الامسيات محملا بالكتب وبعض الزهور ثم زرعها في غرفتي . لا ادري لماذا تحولت الكتب الى جثث سكنت رائحتها انفي ولم يعد بامكاني التنفس بشكل طبيعي .

صرخت في وجهه محاولة الدفاع عن نفسي :

ــ اخرج هذه الكتب من هنا ... اخرج هذه الجثث .

تظاهر بانه لم يسمعني... ترك الغرفة وخرج . نظرت حولي فرايت جثة نيرودا تنزف دما ، وجنودا مسلحين يرقصون حولها بينما قبائل غجرية تشعل النيران لاحراق جسد لوركا .. رأيت عيون اصدقائي السابقين ــ أقصد اصدقاء مقاهي المثقفين ــ تتناثر كالرصاص وتنزرع في كل زاوية ميتة دون حركة ... مددت يدي لاطفىء النور ، فوقعت على شيء حاد لزج، نظرت لاتأكد من أنني لم اجرحها او احرقها ، فرايت عين نيتشه في كفي تبكي بألم غريب وسمعت نحيبها . شعرت بحقد جارف على الذين يستطيعون البكاء ... لا شك انهم يشعرون براحة غريبة بعد تفريغ دموعهم .

حكيت ذلك لزوجي فقال لي : ان علي ان انام جيدا ؛ ناسيا أن النوم صنمت غامض متوتر ومستحيل في ساحات الحرب غير المعلنة .

اتجهت الى النسيان شيئا فشيئا ، وبفضل حقن « الفاليوم » المضاعفة وجدت القليل من الراحة ؛ راحة دفعتني الى الحياة الطبيعية ــ هكذا يسمونها ــ مرة اخرى . ابتدأت أقرأ ــ وربما التهم ــ جثث الكتاب واشعارهم ... استقبل رفاقي عندما يأتون للاطمئنان على صحتي ، اساعد امي في أعداد وجبات الطعام ، وعندما اراها حزينة امازحها قائلة : « اما زلت تصلين لاجلي ؟ » فتبتسم وتقول : « انك

بحاجة للصلاة ، اتمنى لو يهديك الله وتعودين لعقلك » .

كنت بالنسبة لها مجنونة دون ادنى شك ،فأنا املك كل شيء : الزواج، البيت، المال... ومع ذلك فما زلت مصرة على الجري وراء المتاعب والمشاكل . حاولت العائلة اقناعي بالابتعاد عن مواقع الخطر ، لاسيما وان « عيفتاب » قد بدأت تعيش قلقا مغلفا بكل اشكال العنف ، لكنني ما ان استعدت قدرتي على المشي حتى طلبت من عصام في اول زيارة جاءني فيها انيصحبني من جديد الى المخيم . لقد اشتقت الى وجوه البسطاء الذين عايشتهم وعرفت مصائبهم. وعندما التقيتهم بعد غياب ثلاثة اشهر شعرت براحة كبيرة وبدات اعود للحياة الطبيعية ... ادخل مكتبي في الصباح وبدلا منان اقرأ (عفوا التهم) جثث اصدقائيالشعراء والكتاب، اغرق في التفاصيل اليومية لحياة البشر التي تبقى بالرغم من كل شيء حقيقة لا مجال للجدل فيها...استطيع ان اشك بمقولات ارسطو ... فكر هيراقليطس الشعري ... نظريات كوستاس اكسيلوس عن عالم مسطح لا هو بالجيد ولا السيء ... الازمة القصوى للامبريالية العالمية ... لكنني لا اقدر ابدا على تجاهل قدوم الشتاء وتهديد سكان الخيام بالرماتيزم والحمى . شوق عجيب للشمس سكن جسدي واستقر مكان الجنينالذي كنت احمله في داخلي ، واستغربت كيف يمكن لنا ان نملأ بطوننا بالاكاذيب والطعام والاحياء والضحك .!

مات طفلي !

كنت في غاية التعاسة والارهاق . لقد حلمت زمنا بطفل عيناه سوداوان كعيون رجال الشرق . لقد حلمت زمنا بالولادة والحياة انا التي عاشت لفترة طويلة من عمرها

تعانق الموت وحده . ومرة اخرى لجأت الى صورة « ابـــو مشهور » وحاولت ان اعزي نفسي .

مرت بي اللحظات ثقيلة وانا اتحسس مكان الجنين . تخيلته يعيش ... يخبط بقدميه عتمة الاعمـــاق ... يصرخ بي ... يناديني ، يمسح على جبيني مخففا علي وطأة الحياة.

حاول « خالد » آن يبدل شيئا في حياتنا ... ان يهدم جدران الصمت والصقيع ... قال لي :

ـــ ما تزالين صغيرة ، وستحملين مرة اخرى .

ولم يصارحني بالحقيقة ... لم يقل لي ان الاطباء قد لفظوا حكمهم علي : لن اكون اما ابدا . لن اكون الا عاشقة لوجه طفل لن يأتي . آن هزيمة « حران » ثأر شخصي اعيش منذ ذلك اليوم وانا انتظر اليوم الذي اغسل فيه ثأري .

ومرت الايام بطيئة وانـــا الـــزم فراشـــي ... وجه « خالد » يذكرني بالحياة التي تجري خلف جدران البيت دون توقف ... وجه امي وابي يردني للغابات والبحر واشجـــار السنديان ... كتب الشعر تصل الجسور بيني وبين ماضي مرة اخرى ، في الشعر وحده وجدت سكينتي ، وعبر الكلمات الشجاعة لنيرودا استعدت وجهي الذي اضاعته المأساة ...

شوقي الى المخيمات يلاحقني ... شوقـــي للنســـاء والاطفال والشمس يغسل عني رهبة الموت التـــي سكنت شراييني . ما أصعب ان تحيا شوقك انتظارا !

كان الرفاق يعيدون وجودهم في « عينتاب »، والمخيمات الفلسطينية تلد اطفالا بعدد النجوم . بانتظار ان يكبر الاطفال وتزدهر آيديهم بنادق انتظرت طويلا . انتظرت اليوم الـــذي

يسمح لي فيه الاطباء بالعودة الى حياتي اليومية ، ولم يعد يجديني الانتظار .

رفاقي ، اولئك الذين تقاسمت معهم الحرب والخيام والخوف يأتونني في الامسيات الباردة ويحدثونني عن الصعوبات التي تحكم وجودهم . لقد تغيرت الساحة العربية ... مات الجسر الذي كان يربطنا باحلامنا او تهدم وكسرت السبحة . تنازلات في كل مكان ... تنازلات وصلت الى صفوفنا فكادت تمزقها . سألت عصام اثناء احدى زياراته لي عن مستقبلي بينهم فأجابني :

ـ تعودين لقسم الاعلام ، اننابحاجة لك .

حقيقة اخرى كنت أعيشها : مات طفلي بالامس ، ربما قبل ذلك بشهور ... لست ادري ؟ قبل سنة وعندما كنت أطوف السحب بحثا عن وطني وثورتي قال لي ابو مشهور والطائرة تحط على الاسفلت اللامع لاحد المطارات : انني اسمع بكاء أطفال في الجو ... اصوات شبيهة بالاثير تخترق كل شيء ، أنصت قليلا لأتاكد من صحة مشاعره (لا يمكن لنا ابداً ان نفعل ذلك) ولم اسمعشيئا . قلت له يومذاك : انه قد بدأ يخلط ما بين الرغبة والحقيقة . ولم اكن بقادرة على الانفعال بكلمات « ابو مشهور » .

لكنه طفلي انا هذه المرة ، طفلي الذي حملته ثلاثة اشهر في داخلي ... شاركني في كل شيء ، في ممارسة الحب ، والمجيء الى المخيم ، وصياغة النشرات السياسية . وعزاني كثيرا انه قرر الاستقالة من الحياة باكرا حزنا على من سبقه في « حران » وربما خوفا من العار ، لقد كان اكثر مني صدقا . لقد حلمت زمنا بطفل عيناه سوداوان كعيون

الرجال في الشرق ... كنت اريده ذكرا لان الرجال قليلون في عصرنا ، وانا مصرة على خلق رجل او ايجاده . وعند كل وجه كنت اقف آملة او متأملة ، لكنني كنت اخلص ابدا الى ان الرجال بعد الخامس من حزيران سقطوا في قاع وادي النار حيث كانت تحولهم « ميدوزا » الى صخور سوداء غير قادرة على الحركة او الحب .

مرة آخرى لجأت الى صورة صديقي ورفيقي « ابو مشهور » ، حاولت ان اعزي نفسي والومها لانها انكرت ـ في غمرة الاندفاع ـ ان « ابو مشهور » كان سيد الرجل جميعا ولذلك حمل اوراقه وسافر الى الموت .

زوجي الرسمي الهادىء المثقف الذي يعشق موسيقى شتراوس واشعار سان جون بيرس يعيش حياته بايقاع عجيب من السكينة وكأن الاحداث التي تقتلعنا جميعا لا تعنيه شيئا . الاستيقاظ في السابعة صباحا ، تناول الفطور ، قراءة الجريدة ، الانصراف الى العمل ، محرك سيارته يهدر في الثامنة الا خمس دقائق تماما ، وكنت استطيع ان اضبط ساعتي على هدير المحرك . في الثالثة ظهرا هدير المحرك مرة اخرى وطعام الغداء ثم الدخول الى حجرة النوم وقراءة بعض اشعار « باوند » الذي كان يعشقه كثيرا :

« قال للببغي لا تخافي ، اناعزرآ باوند

لن اتركك ما دامت الشمس تلامس جسدك ».

فترة مكوثي في البيت جعلتني اكتشف زوجي وعاداته ولم يخالجني الشك بأنه قد اختار سلامه هو ... كون لنفسه وطنا في داخله ولم يعد يعنيه الوطن الكبير الذي نعيش فيه. قلت له ذلك مرة على طاولة العشاء فظل هادئا ... مستمرا في تناول قطعة الجبن الفرنسية التي يحرص باستمرار

عليها بعد الطعام . وعندما حاول جسدانا ان يقتربا فـــي السرير اكتشفت انني لا استطيع ان اتجد بمملكة من القرارات والارقام والساعات الدقيقة الصنع . يا الهي ! منذ متـــى وانا اتعايش مع هذه الاشياء كلها ؟.

ليلة وحشية من ليالي صيف معسكرات الشمال ، لم يبق على خوض النهار الا ساعة واحدة وربما اكثر ، فانا لا اعرف كيف احاسب الزمن . جاءني ابو مشهور في خيمتـــي يحمل لي اخر النشرات التي وصلتنا من « حران » وفيهـــا اوامر تقضي بنقلي الى مكان آخر لاتابع تدريبي استعدادا للرحيل الى أوروبا... تمطيت بكسل وكانت الشمس لم تشرق بعد ... بعض نباتات الشـــوك التي لم انجـــح بقلعهـــا مـــن خيمتـــي انغـــرزت فـــي ســـاقي فصـــوت ... اخـــذت احدق بدمـــي وهـــو يسيل ببطء وفرح ثم قلت لـ « ابو مشهور » : ان الدم ينصت الى حكايا الحياة الرائعة . لماذا يموت البشر عندما تنزف دماؤهم ؟ حدق في وجهـــي بابتسامته قائلا : يمكن الموت معك ... كما تمكن الحيـــاة . فوق الشوق والاغطية القذرة ـــ عفوا النظيفة جدا ـــ اتحدنا معا ورائحة الارض تتسرب الى جسدينا ثم تنشر شيئا مـــن السحر على الهضبة المكسوة بشجر الزيتون . عندما رأينا وجهينا في الشمس ضحكنا وجمعنا اشياءنا بسرعة . واتجه كل منا الى معسكره ، لم نكن نعرف اذا كان الغد سيجمعنـــا حيين أم لا ؟

زوجي أختار سلامه الداخلي ... وطنه الداخلي ... عمر أسوارا حوله وعاش مطمئنا . لكن اي اطمئنان كان ؟! سألته مـــرة :

ـــ لماذا تزوجتني يا خالد ؟.. انت تدري جيدا انني ...

لم يدعني اكمل عبارتي بل قاطعني :

ـــ لأقرأ فيك اشعارا لم اعرفها منقبل ، لأقول لك ان الحياة تعيش وقعها اليومي ببساطـــة وعادية ولاحاجة لان نقفز فوق التاريخ .

كان خالد مناضلا ذات يوم . ومع الزمن تحول الـــى مجموعة معادلات يبحث من خلالها عن السلام الداخلي الذي ظنه درعا تستطيع ان تحميه من غابة الاشياء التي نحياها .

جاء عصام الي ليلة رأس السنة عام ١٩٧١ . خرجنا معا الىشرفة بيتي المطلة على « عينتاب » وبدت المدينة امامنا وهي ترمي بجدائلها الى البحر وينسحب جسدها خارج الماء زاحفا على ركبتين . رائحة زهور البرتقال والملح والاسماك تملأ الجو وتطغى على كلماتنا التي بدت متقطعة وسط اعياد المهزومين . ما أقسى أعياد المهزومـــين ! تبدو لك كطقوس جنائزية هزيلة لا تحكمها ابدا لحظة الحزن المقدس للموت .

ـــ مرة اخرى ، قررنا تنفيذ عمليات في الخارج .

صعقت ، فقد كنت اظن انهم صرفوا النظـــر كلياعن هذا النوع من السلوك الذي ادى دوره وانتهى ... بـــل تحول الى سلاح ضد الثورة بعد ان استغله المغامرون وعشاق الفضائح السياسية . كانتالعمليات الاولى ضرورية لخرق جدران الصمت الذي كان مفروضا علينا من قبل اجهزة الاعلام الغربية والعربية ... لكن أحداث أيلول في « حران » اكدت ان قاعدتنا الاساسية هي الجماهير العربية ولاجدوى اطلاقا من الذهاب بابعد من ذلك . قلت لعصام وانا اسمع صرخات « ابو مشهور » في وجهي ليلة عملية « جنيف » :

ـــ لا يا عصام : لا نعودوا الى هذا النوع من العمليات التي استنفدت اغراضها . علينا ان نركـــز الآن على عروبة الثورة وربط جماهير البلدان المضيفة بنا . لو نشب القتـــال مرة اخرى هنا لن نجد الى جانبنا سواهم .

وتظاهر عصام بعدم سماع ما قلت ثم استطرد :

ـــ لقد جئتك من اجل ان تشاركي بوضع الخطة الجديدة لثلاث عمليات ستنفذ خلال شهرين في اوروبا ... تجربتك في الماضي تسمح لك برؤية الاشياء بشكل افضل من الرفـــاق الذين لم يشاركوا من قبل .

استنجدت ببعض هدوئي حتى لا انفجر في وجهه قائلة : « لماذا الهرب من الحقيقة ؟ لماذا لا نعود الى تجربتنا السابقة وننقد اخطاءنا ؟ لماذا لا نقـــدم تحليـــلا لتجربة « حران » ؟ ان الجماهير فقدت ثقتها بنا » .

لاحظ الصمت العاصفة فسألني :

ـــ كيف ترين المسائل اذا ؟

ـــ واضحة ، عليكم بتركيز وجودكم في الجنوب قريبا من الارض المحتلة .. وخلق مناخ ثوري يربط الناس بقضيتهم . عندما ستقصف بيوت الفلاحين هناك لن يترددوا بالتخلي عنا اذا لم يكن لديهم سبب حقيقي يدفعهم للتضحية .

وبدا عصام يردد على اسماعي عبارات كانت تثـــير لدي الغثيان : المشاعر القومية .. التضحيات .. السياسة الدولية . وارعبني وجهه الذي بدا لي في العتمة لا يختلف عن وجه قادتي السابقين في الحزب .

خرجنا معا الى القيادة العسكرية ، فصارحتهم بوجهة

نظري . قلت لهم : لم اعد أؤمن بنقل صراعنا الحقيقي الى ساحات اخرى لا تعنينا مباشرة . وقلت لهم آن العمليات السابقة غطت على نضال رفاقنا في الداخل حتى بدت الحقيقة الوحيدة . قلت لهم آنني سئمت معاملة الناس لي كنجمة في الوقت الذي انتهى فيه رفاق لنا الى الموت دون ان يشعر بهم احد . قلت لهم : ان اصوات الاطفال والنساء في عمليات الموت تلك ما زالت تلاحقني ... تذكرت صوت سيدة في مطار لندن يصرخ بي : « أليس لديك أطفال تخافين عليهم ؟ » ويومها رددت عليها بهدوء : « لم يسمحوا لنا بانجابهم » .

لكن الظروف تغيرت ... وعلى رفاقي ادراك هذه الحقيقة ... « عينتاب » ليست « حران » و ١٩٦٩ ليست ١٩٧١ .

ظلوا صامتين يحدقون في جهي ببلاهة ، وعندما شرعوا بوضع خطتهم للاشهر القادمة بدأوا بخطف الطائرات ... حاولت الاعتراض مرة اخرى فسمعت صوت « نايف » يصرخ في وجهـــي :

— يا رفيقة ... يبدو انك تعبت . لن نطلب اليك تنفيذ أي من العمليات لكننا نرغب ان تقدمي خبرتك ، وهذا واجب ثوري ...

فجعتني كلماته ... احسست بالطعنة تصل اعماقي ... حملت اوراقي وخرجت . وهكذا افترقنا . مشيت في رطوبة ليل المدينة البحرية وحيدة، وكان علي ان أعي انني ابتداء من تلك اللحظة سأواجه العالم كله وحيدة .

بعد ايام ، اشيع انني قد تركت المنظمة لاسباب عائلية وان صحتي لا تسمح لي بالاستمرار ... ومنع عني الاتصال

بالقواعد كما ابعدت عن المخيمات ... وببساطة .. انتهيت بينهـــم .

مضت الايام الاولى بصعوبة بالغة . كان الليل يمضي وعيناي معلقتان في سقف الغرفة، وخالد الى جانبي يطلب الي أن أنسى واتفرغ لحياتي وكتابتي . ولم يكن يدرك ان النسيان صعب ، ولا مفر من مواجهة الالم الحاد الذي يسببه لي اي تماس حسي مع ذكراهم ، كأن البقايا تنفي عنا صفة الحلم المعزية وتعيد الينا نبض الحياة الحقيقية والواقع الذي كان . اذكر كما يذكر النائم حلما موجعا ، انني ليلة عودتي الى البيت ، بعد أن تركتهم ، جمعت كل الصحف التي تحدثت عني ... كل الوثائق التي كنت احفظها عن عمليات خطـــف الطائرات ... بعض خطابات الاعجـــاب بشجاعتي ... واشياء اخرى صغيرة كثيرة لا تعني شيئا لسواي لكنها تحمل رائحة دنيا كنت احياها في مداراتي الخاصة قبل ان تقنعني الايام بعدم جدواها... اذكر انني جمعت من تلـــك الاشياء ما استطعت واحرقتها ثم جلست ارقب لهيب النار في الموقد بهدوء بالغ ...

انقضت ايام من البحث المضنـــي عن الحقيقة التـــي تسندني وانا متوترة غضبا وخوفا من الوحدة . كنت اطوف في البيت كجنية تبحث عن شيء اضاعته ، وتعرضت لعاصفة روحية قلبت كل معادلاتي . لقد اكتشفت انني اعيش معادلات من نوع اخر غير تلك التي يحياها زوجي .. عاودت بحثي بيأس عبر الكتب وتراث الثورات فوجدت ان الهوة بينـــي وبينهم سحيقة ... لقد ألم بنا طوفان غريب فحمل كـــلا منا الى جبل في هذه الارض.كنت احبهم كما احب سلاحي ...

اعرفهم كما اعرف نفسي واتمنى بصدق ان اكـــون مخطئـــة في تصوراتي . كان عزائي الوحيد قناعتي انني علـــى حق وما فعلته كان لصالح الثورة ومستقبلها ..

خمسة اشهر مرت على فراقنا وانا احيا عذابا حقيقيا كان غربة تجتاح روحي ... غربة تتسلل الى قناعاتي وافكـــاري واعماق مشاعري . خمسة اشهر وانا بعيدة قريبة ، والرفاق انقطعوا عن الاتصال بي. وسمعت ـــ بل تابعت في الصحف ـــ اخبار عمليتين خارجيتين قاموا بهما وكانت النتائج محزنة ... فتل ثلاثة من رفاقنا في أول عملية . وطرد عدد من مناضلينـــا من بلد اوروبي دون ان نحصل على اي كسب .

خمسة اشهر مرت وخالد يعيش سمفونية سلامـــــه الداخلي ، وانا قطعة جمر تحترق في زوايا البيت الواسع ... الخبز رمادي ... السماء رمادية ... الفرح رمادي ...

حاولت ان اعود للحياة العادية ... ان اذهب برفقة زوجي لزيارة الاصدقاء ، ان اقرأ « جثث » الكتاب وفلسفتهم؛ لكنني استعصيت على الحياة اليومية كما استعصت علـــي ايضا . وجوه اصدقاء زوجي بدت لي دون لون ... كانت مطاعم « عينتاب » مراكز ممتازة لتقديم السم في وجبـــات منتظمة . الليل طويل ومسكون بالبرد والمجهول وصراخ اطفال المخيمات وقتلى « حران » ، وكان علي ان ارحل الى اي مكان في العالم يخلصني من العذاب الرهيب الذي اعيشه فـــي « عينتاب » . عندما جاءني خالة يخبرني بترشيحه في بعثة تدريبية الى فرنسا قلت له مباشرة ودون تردد :

ـــ سأرافقـــــك ..

فرح كثيرا ، فلم يكن يتوقع ذلك . حزمنا امتعتنـــا وودعت امي وابي ، تاركة « عينتاب » وفي داخلي قـــرار اتخذته في لحظات وحدتـــي : سأنسى ... سأنسى ... سأنسى .

وهكذا جئت باريس ابحثعن المراة في دمي ، لكننـــي عبثا فعلت . لم افارقهم ابدا وكان الليل هو العودة ... جسد زوجي قارب يحملني اليهم ...

كانت « حران » ترتسم امامـــي في شوارع باريس وتفاجئني في الزوايا المعتمة . وكم رايت باريس تتحول الى « حران » وانا اقطع شوارعها على قدمي محدقة خلفي لاتأكد ان ليس ثمة من يتبعني لكي يسوقني الىالسجن . وكـــان منظر شرطي السير يفجر في داخلي ايام الاقبية في سجون المانيا فيرتعش كياني .

في الايام الاولى من حياتي في باريس لازمت البيت . كان خالد يذهب الى المستشفى في الصباح ويتركني فـــي سريري احاول ان اغالب ساعـــات النعاس الاولى التى تهاجمني في الفجر بعد ان امضي الليل مستيقظة احدق في سقف الغرفة . وكان يقول لي دائما :

ـــ نامي ، ان صحتك لم تعدتحتمل ...

أتظاهر بالنوم ، احاول النوم ، لكن عيني تسمران الى الصباحباحثتين عن تلك الجزر المنسية التي هجرتها .

وفي البيت حاولت ان اكون امرأة ... حاولت ان اهتم بشؤوني وشؤون خالد الصغيرة ... حاولت ان اقـــرا ... ان اكتب ، لكنني اخفقت واصبحت حياتي محطة انتظـــار لآت لا ادري متىوكيف ومن اين . وبدت ليكذبة الاستقرار

مفجعة ... حقائبي مشدودة ومغلقة الجأ اليها كلما احتجت شيئا ... اخرجه بسرعة ثم اعيد اغلاقها من جديد منتظرة ان تأتيني ساعة اقرر فيها العودة .

رغم ضجة باريس كنت التقط أصواتهم الغاضبة ... نقاشهم ... نبراتهم التي تذكرنـــي بصوتي ، واحاول ان أتدرب بشكل لمنهجي على النسيان .

بعد وصولي الى اوروبا بشهرين كتبت رسالة طويلة لـــ « ماري روز » أسألها فيها عن اخبارهم ، وتطور الظروف من حولهم في « عينتاب » ، وتلقيت منها رسالة مقتضبة تخبرني فيها : بأنهم محاصرون والمعركة لا بد آتية . ثم ذكرتني في نهاية الرسالة بأن علي أن اهتم بصحتي واحاول انجـاب طفل . لست ادري لماذا كانت « ماري روز » تتحدث عـــن صحتي وعن الطفل ؟ ربما اقنعتهم القيادة بأنني فضلت حياة الزوج والبيت على حياتي كمناضلة في صفوفهم ... ربمـا لم يتحدثوا عن خلافاتنا ، فرسالة « ماري روز » ليس فيها ما يدل على انها تعرف شيئا مما حصل ... كتبت لهـــا رسالة مطولة اشرح فيها ظروف تركـي المنظمة وقناعاتي الحالية بكيفية العمل والاسلوب الممكـــن ، ولم اتلق اي جـــواب .

كانت « عينتاب » قد اقتربت من اشتعالها وانا احاول النسيان ... أتحلل في اثير الرغبـة بالحياة العادية ... اذهب الى السوق واشتري اشياء كثيرة واعود بها الـــى البيت ، وعندما أعرضها أمام عيني من جديد أشعر بتفاهتها وسخافتي ، فأحطمها والقي بها في سلة المهملات .

حاولت ان اعيد للبيت حياته ... ان اكون زوجـة وانسى انني خذلت في ساحات النضال العربـي . اعيش

حياتي الجديدة ... حقيقتي الجديدة وانسى ، لكن صورة « ابو مشهور » ظلت تلاحقني . ورايتها في كل مكان ، وكثيرا ما كانت عينا « علي كارلو » و « فرحان » تأتيان في الظلمة وانا أتنزه على الرصيف المحاذي لمحطة « اورسي » حيث يقع بيتي فتسد علي الطرقات والمنافذ . لقد سكنوا جسدي وجعلوا مني ساحة معركة متنقلة ... اخطر من الساحات الثابتة جغرافيا . سكنا الصمت او بالاحرى سكن كل واحد منا صمته . بدأ خالد يغيب عن البيت ، وكثرت نزهاته اليومية على رصيف « اورسي » : هل كان يبحث مثلي عن شيء فقده ؟ جاءني ذات يوم وقد حطمت كل معادلاته... ثملا ومتعبا ... سقط في فراشي وحاول ان يعبر جدراني، وفي لحظة صمت اخرس انفرجت شفتاه عن سؤال نسيته :

ـ الا تفكرين بانجاب طفل ؟

كنت قد نسيت تلك الرغبة ... اجبته :

ـ لنفكر بهذا فيما بعد ، علينا ان نعود الى الشرق قبل كل شيء .

صرح في وجهي بغضب حقيقي :

ـ لقد كنت سببا في قتل جنينك . حياتك اللامعقولة هي التي قتلته . والان بعد ان استقر بك الامر ترفضين ممارسة دورك الطبيعي . اما كفاك تشردا وعذابا ؟. لقد عرفت مطارات اوربا تحت ظلام الدم والموت في اية دقيقة ... لقد وجدت الموت في «حران». لقد هجرت كل شيء للالتحاق بهم، وماذا كانت النتيجة ؟

احسست ان كلمات « خالد » تفتح لي ابواب مدن الحزن والماضي . انتفضت من السرير واقفة ووضعت معطفي فوق

ثوب النوم ثم انطلقت الـــى الشارع احمـــل جسدي ووجهي وغربتي ... لقد آخفقت بالنسيان ... وما زالت ذكـــراهم تدفع بي الى اقصى الدائرة . ظللت يومها اطوف شـــوارع باريس كالمجنونة ... اتوقـــف امام حـــراس الليل والمقاهي المطفأة ... استند للجدران واصرخ ... اسمع صدى صوتي يمزق الليل والجدران ونوم السادة المتخمين ، وعندما عـــدت الى البيت لم اجد زوجي ، بل رسالة يقول لي فيها انه قرر الاستقرار في اوربا ، وعلي ان اتدبر حياتي ، كما يذكر لي انه يمكنني طلب الطلاق من سفارة البلد الذي ننتمي اليه ...

اضحكتني رسالته كثيرا .. اضحكتني قوانين المهزومين وسفاراتهم وسفراؤهم وحرصهم على الشكليات والكلشيهات التي عاشوا ضحايا لها . اية سفارة واي طلاق ! فانا لا احمل اسم بلد معين ... جواز سفري الثالث او الرابع ـــ لم اعد اذكر ـــ يحمل اسم بلد لم اولد فيه .. اسم امراة اخرى غير تلك التي تزوجها . فقد حرصت حكومة بلد عربي تقدمي على تزويدي به عشية سفري الى اوربا خوفا على حياتي بعد ان كانوا متأكدين من ان اسمي الحقيقي غدا معروفا فـــي سجلات البوليس ودوسيهات المخابرات في اوربا كلها . واذكر ان قنصلهم العام في « عينتاب » اكد لي يومها ضرورة عـــدم التنقل والسفر بين البلدان الاوروبية، كما طلب مني الامتناع عن القيام بأي نشاط سياسي . وقبلت شروطهم لانني كنت بحاجة للرحيل الى اي مكان في العالم بعيداً عن « عينتاب » . كنت بحاجة للنسيان والخلاص بعد أن هدم الرفاق كل الجســـور الذي تربطني بهم .

جلست في البيت وحيدة افكر بما يجب علي عمله بعد ان

قرر خالد اللجوء الى ساحات سلامه الخاصة مبتعدا عن كل ما يذكره بالوطن الذي تركناه في حالة اشتعال وغليان .

هل اعود الى «عينتاب» ؟ ام استقر فترة في اوروبا احاول فيه النسيان والتعود على الغربة ؟ ان رفاقي ــ اخوتي ، وليس لي من أهل او عائلة سواهم ، قد قطعوا اتصالهم بي . رسائل ماري روز انقطعت منذ فترة ، وعلمت ان « نايف » قد مر في باريس ورفض الاتصال بي . كتبت رسالة مطولة الى عصام أكدت فيها على موقفي السابق وطلبت اليه ان يدرسوا من جديد قضية التحاقي بهم ... انتظرت اجابته طويلا ولم تـــأت .

كان علي ان اقرر بسرعة قضية مستقبلي الشخصي ، لان رفاقي لم يكونوا قلقين من اجل ذلك . واكتشفت الحقيقة المرعبة : لا احد يستطيع ان يكون مكانك في حسم مسائلـــك الشخصية . كأن تأخذ هـــذا الطريـــق بـــدل ذاك خوفا من المفاجآت ... ان تدفع اجار بيتك وثمن طعام اطفالك ... ان تذهب الى الطبيب بنفسك فتشكو له الحمى التي تلاحقك ... هذه هي اشيائي الصغيرة كلها نبتت لي فجأة في ظلمـــة الوحدة التي بدات تلاحقني في باريس .

افضى بي البحث الى عمل في احدى السفارات العربية (وما اكثرها !.) . اخفيت عن الجميع حاضري ومـــاضي واستأجرت غرفة صغيرة في الحي الرابـــع عشر ثم بـــدات رسائلي التي لم تنته ابدا الى الرفاق . الحياة العادية اليومية ... عربات المترو ... اروقة الجامعة ... وجوه الجارات ... الفراش الذي ينزف ثلجا وغربة . وقررت النسيان... بدات امارس النسيان بشكل ممنهـــج . استيقظ في الصباح

واقرر ان اعيش يومي ، اغرب في غرفتي واشرب كأسي على رصيف مقهى . ادخل مكتبي واعطي تأشيرات دخول للسواح الراغبين بالتفرج على مآسينا . احدثهم احيانا عن شجر القات والنخيل ، وعندما المح اهتمامهم اكثر اجرحهم بالحقائق التي ترعبهم : « لن تجدوا حمامات تغسلون بها معداتكم المتخمة » . « ممنوع دخول الكلاب الى بلادنا » . « ستصابون بالجدري والملاريا » . كنت اجمع جملي وتناقضاتي واعود الى البيت . القي بوجهي في جثث الكتب ، آهتف للباهي عندما تجرحني سكين الوحدة ويأتيني ليقوم بمراسيم الدفن المعتادة ... نشبك ايدينا معا ونطوف الشوارع نشتم الحكام ... الزعماء ... الساسة ... الكتاب ... الاحزاب . ثم نهتف لصديقنا السفير الغاضب « محمد » وندعوه لعشاء رخيص في حي « باربيس » لا يتناسب وثروة بلاده التي تقطر بترولا وتخمة ونساء .

احاول آن انسى ...

التقي بنفسي احيانا ... بوجهي الذي نسيت ... احاول ان اكون قريبة مني ... آحاول ان اعرف معنى الايام التي عشتها او سأحياها والجرح في داخلي يلتئم لكي يعود من جديد فينزف حزنا . عدت للشعر ورايت صورتي على الورق عجوزا شاخ وابيض شعره ، رأيت الوطن في صوت الباهي وقد تحول الى كأس عرق وصحن تبولة واغاني فيروز .

الرجل الوحيد ... الرجل المنصف « محمد » شدني من يدي وعاد بي في رحلات مجنونة الى الصحراء ، حدثني عن « عمر بن الخطاب » عن « المتنبي » عن « ابن الدمينة » ثم روى لي بعد ذلك كيف اختار ان يعيش ضمن معاهدات

لا تمس أحداها الاخرى . واكتشف أننا جميعا بحاجة الـــى المعاهدات ! لا فرق ، لانني اعيش بانتظار النسيان .

فرانـــك !

غداً أرحل عن باريس ، انتظر عودتي كعاشقة علـــى محطة والثلج يغسل شعرها وعينيها . الثلـــج هنا واشعل الجسد بالنار التي تمزق صمت « عينتاب » ، بالرصاص الذي يسقط الفرح والحلم والانتظار ويبني مملكة وحشية .

قبل ان نلتقي جثتين تنبضان بحرارة الدم (اذهلني ان جثتينا تنبضان) كنت في مرحلة الاقتراب من شاطىء الاستسلام للواقع اليومي ... للحياة التي ابتدات اكتشف صعوبـــة ان نعيشها دون الم ، ولكن الافظع منذلك ان نحياها دون فرح .

رحلة النسيان والتخدير تتحد بي لتنتهي في كأس براندي واوراق الكتب ... تناسخ الارواح ... الفرح الموعود ... فكر هيراقليطس الشاعري الشعري ... صرخات نيتشه... هاتف من صديق يسأل عن صحتي ويطمئن الى انني ما زلت احيا لاتحمل حقدهم .

قبلك ادمنت الغربة ... ادمنت النسيان ... ادمنت طقوس الدفن على طريقة الباهي :

دفن مصحوب بملصقات العـــرب ... اشعار لبيـــد والشنفرى وعروة بن الورد. قبلك سكنت الى صديقي السفير الغاضب « محمد » وحدثته عن الايمان والسهرودي ورابعة، باختصار ادمنت اللاحب وتشردت حتى تعبت الارصفة مـــن اقدامي .

قال لي « محمد » بالامس وهو يمسح على راسي : ماذا تطلبين من الزمن ؟

قلت والدمعة تكاد تنزف من جسدي كله : ان احتمي من المطر والمارة والسيارات العابرة ...

قرب « محمد » وجهه من ركبتي ، وقبلهما ثم رفع عينيه الى وجهي : انني اعشقك يا سيدتي .

وحاولت عبثا ان اشرح له ان الحب عملية ملكية مغلفة بالكثير من عبارات اللغة الكاذبة . لم يصدقني ، ظل يتذكر بعض اشعار عروة بن الورد وطرفة ومحي الدين بن عربي .

فرانك ... قدمت الي من غابات الصقيع ... من ليالي النار والتشرد في موانىء القارات . فجرت في داخلي بؤس الذكرى ... اوه ما اشد وجع الذين يملكون ذاكرة وتاريخا !

هكذا نلتقي ... هكذا التقينا .

هل انا اعشقك ؟ لا ادري ... انت الموجة الراحلة الى شواطىء النسيان حاملة على وجهها اعشاب البلاد الاستوائية .

كنت اتحد بك (لم اكن اتحد بنفسي) ونتحدث معا عن مارلو وجيد ونيتشه والتوسر وميشو ... كنت أحاول الانتساب الى سواهم — رفاقي الذين احب . لكن اي انتساب هذا ؟ انا الوارثة للدم والزيتون وشجرات النخيل ... هل رأيت نخيلا يعيش في البحر ؟

استنجدت بك عبثا ، واحتميت بصدرك في مرات كثيرة،

محاولة ابعادهم عن عالمي لكن الموت هو الموت والوطن هـــو الوطن ... والحرب الاهلية غير الحرب .

لقد استيقظوا ولعلهم ينتظرون .

انني عائدة الى « عينتاب » واعرف انها تحترق ... سأتحد بهم ونبحث نبحث عبر الاخطار والنار والموت عن افق اخـــر .

تحياتي ـــ اقبلك

نادية .

جمعت نادية اوراقها واتجهت الـــى باب المقهى ... تركت السكارى والدفء وزمن الكرز فاتحة صدرها لليلورياح تشرين الباردة . استدارت منعطفة في شارع (جوردان) مارة بمحطة مترو «بورت دورليان» . توقفت في زاوية الشارع تسمع صوت الليل الذي غدا رتيبا في تلك الساعات . مر بها احد « صعاليك الحي » يتمايل مترنحا ويرفع بيده زجاجة نبيذ فينسكب ما بقي منها على راسه . خافت قليلا وحاولت ان تسرع خطاها ... رفعت راسها تتأمل النوافذ العالية ، وقد اسدلت ستائرها واطفأت انوارها . لم يبق في هـــذه الساعة من بشر في الطرقات . لم يبق من نور يضيء العالم . بشـــيء من الحزن تذكرت « عينتاب » التي تحترق الان ولا تعرف النوم منذ سنة بينما المدن الاوربية ترقد دون تعب ... دون ارهاق . انعطفت في شارع بونيير عابرة المقهى الذي تعودت ان تتناول فيه قهوتها الصباحية. مرت ببيت « لينين » في الرقم (٢٤) من الشارع ، وتسمرت قليلا امام الاحجار الزهرية التـــي شهدت دون شك لمسات ذلك الرجل العظيم . اسندت راسها الى الحائط المقابل وظلت جامـــدة .. تذكرت كيف وقفت مندهشة لدقائق امام البيت وفرانك يشرح لها تاريخ دخـــول لينينباريس لاول مرة . هاجمها الحزن الليلي وكأنها انتهـــت لدقائق فقط من تأبين الرجل الذي عشقت . لقد مات لينين منذ زمن . مات دون ان يمر بـ « عينتاب » وها هي مضطـــرة ان

تأتي هنا ... تتكلم لغة اخرى ... تعانق وجوها اخرى ... تعيش أياما اخرى حتى تستطيع أن تكتشفه جيدا .

حاولت ان تجمع صوتها من داخلها ... ان تطلقه في فضاء هذه الوحشة الانسانية التي تحيط بها ... أن تقـــول أي شيء تسمعه بأذنيها لتتأكد انه يقال ، وانها ما زالت تحيا والدم يجري في عروقها . لكنها وجدت صوتها يهرب منها... يخونها ، وتذكرت ان بيتها هو في الشارع الاخر وعليها ان تجمع جسدها وتسرع الى فراشها لتنام وتستيقظ غدا فتجري وراء عربات الموت والنهار المرهق .

ما ان خطت خطوة حتى تذكرت حشرتها ... وجعلها مرور هذا الخاطر في رأسها تتسمر امام بيت « لينين » . مدت يدها واستندت الى الجدار حتى لا تهوي على الارض . ستعود الى البيت ... هناك ستقابـــل الحشـــرة وتسمعها وتأنس لصوتها حتى صباح الغد . قد تجد الجدار مهدوما ،وربمـــا كانت الحشرة قد وصلت الى صورة امها وابيها وخارطـــة الوطن ... ولعل الحشرة لم تستطع ان تبتلع خارطة الوطن فاختنقت ...

عندما وصلت نادية الى هذه الفكرة شعرت بشيء من الراحـــة .

يمر بها عابر درب ... عابر اواخر ليل متعب . يظنها احداهن ... يمد يده فيشند بذراعها :

ـــ تعالي معي ! سأدفع لك ما تشائين ... بيتي ليس بعيدا ..

يحاول جرها بالقوة ... تصرخ ... تخلص نفسها من قبضته وتسرع باتجاه (هنري رينيو) . وامام الرقم (٦) تتوقف

لاهثة وحيدة ... تنظر خلفها : لقد مضى الرجل تاركا قهقهة عالية تخرق ظلام الطريق .

تصعد السلم الخشبي العتيق مسرعة ، وامام بـــاب غرفتها تتوقف قليلا ، تبحث عن ظلام السلم عند النور ... يتناهى اليها صوت الحشرة من الداخل رتيبا ... ترتعد ، تستدير محاولة الفرار ولكن الى اين ؟ كانت المدينة نائمـــة والمقاهي مغلقة الابواب ، وفرانك بعيد عن باريس ... بل هو في قارة اخرى ... محمد يغرق في حضن زوجته الجميلة مغمورا بدفء البترول ، بينما باهي يركض ومنذ شهور يرفض ان يقوم بمراسيم دفنها، فقد تعب من ذلك وقال لها صراحة:

« انني ابحث عن دور اخر غير حفار القبور ، لقـــد قل عدد الموتى المحترمين ، وانت جثة في غاية الاحترام » .

استجارت بشجاعتها التي عايشتها ايام الحرب السرية غير المعلنة بينها وبين الاف الاشباح والرجال المقنعين ... لا فائدة من ذلك ... تذكرت شمس الشـــرق وبيـــادر مدينتها الساحلية. اكوام القش الفضية وثعابين كثيرة تضاجع بعضها بسلام ... لا فائدة ... ان الحشرة شيء اخر . استجمعت كل جبنها وقلقها وضربت الباب بقدمها ثم انسلت الى الداخل ...خلعت ثيابها واوت الى سريرها ، فغدها سيكون حاسما. شرعت تعد الارقام مبتدئة من الصفر ... من رماد الاشياء ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ... لا نوم ... عيناها تحدقان في المدفاة ويرتعد في داخلها حزنها .

(هذه الليلة سانام ... ما لي وللحشرة ؟ ... لتقرض الجدار ، لتصل صورة امي وابـــي ووجه فرانـــك وخارطة الوطن ... لتهدم الجدار ، فلست من بنته . سأطـــرد من

البيت وسأجد بيتا اخر لا حشرات فيه ... ربما سأسافـــر ايضا الى مكان اخر) .

أشعلت النور فوقعت عيناها على غرفتها من جديد ... باردة غرف النساء ألوحيدات . باردة ، فارغة من كل شيء.. واكثر برودة منها بيوت النساء اللواتي يضاجعهـــن الازواج كواجب لا بد منه ... ان الزهـــور ميتـــة في اصصها ... سريرها بحر نضبت مياهه .

عندما اقترب الناس من عينيها تذكـــرت انها لم تخلع حذاءها بعد ... أشعلت النور فوقعت عيناها على بقـــايا سجائرها وغليون في الزاوية ورائحة جسده ... نظرت الى المرآة فلمحت وجها لامراة قابلتها صدفة ذات يوم قريبا مـــن جدار مقبرة . كانت المرأة تنحب بصمـــت ، وعندما سألتها لماذا تبكـــي اجابتها : انها تبكـــي المدينـــة التـــي ماتت في لا مبالاتها . تنفست بفرح . لماذا لا تحاول ان تبكي هذا العالم الذي مات في لامبالاة ؟ رأت عينيها تضيقان عن البكاء والدمع ... تضيقان حتى تختفيا من وجهها ... تلمستهما وشعرت بقشعريـــرة تغتـــال جسدها ، صـــوت الحشـــرة يعبر مع القشعريرة . اطفأت النور مرة اخرى وحاولت ان تنام .

مثلما الاوطان والبلاد البعيدة ، النوم ايضا حبيب شرس يحتاج للصبر والثورة ، تحسســـت جبينها ، فألفته باردا كالثلج . صوت الحشرة ... صوت العاصفة في الخارج ... سمعت صوت انغلاق النوافذ بشدة . وبدا لها « ابو مشهور » بوجهه الحزين كوجه مسافر مضى دون وداع . اقترب منها ... امسك بيدها ... كانت نظرات قاسية تطل من عينيه . سمعت صوته يأتيها :

ـــ اين خلاصك يا نادية ؟ انت هنا بقايا وطن وامـــراة ومقاتلة .

حاولت ان تجد الاعذار لنفسها :

ـــ في الليل ارتجف بردا ...

طرح سؤاله بشكل معكوس :

ـــ الى اين تهربين ، من ارض الى اخرى ، من ميـــناء الى ميناء باحثة عن الثورة في جلود الاخرين ؟ ان الثورة في داخلك وعليك اكتشافها ..

رددت نادية متجاهلة عباراته :

ـــ في النهار تسحقني عربة المجتمع الاستهلاكـــي . في الظهيرة اغرق في تصوراتي عن التقدم والثورة .

صمت « ابو مشهور » وغاب ... عيناه الحزينتان ركبتا من جديد قطاراً يسافر الى الافق ، وشعرت نادية لـــدقائق بأنها تتنفس الصعداء ...

حاولت ان تنام عبثا ... الصوت ما زال يلاحقها . اختلط صوت الحشرة بصوت « ابو مشهور » بصوت صلوات امها البعيدة ، وهربت الدماء من جسدها .

لتكف عن الهذيان، قالت ذلك لنفسها واغمضت عينيها .

استيقظت نادية في اليوم التالي على صوت الهاتف ، كانت ما تزال تعيش احلام ليلتها الســـابقة : الرعب الذي لاحقها . الصحوة التي هزتها ... وادركت ان عليها ان تتخذ قرارا . لقد انتهى فرانك من حياتها . فقـــدته منذ فقدت

اطمئنانها المقيت واستسلامها للزمن ، ولم يعد ينفع لا النسيان ولا الهرب .

حملت سماعة الهاتف فجاءها صوت فرانك بعيدا تمزقه المســـافات ... تمزقه حرارة القارة التـــي تضمه في تلك اللحظة ، قال لهـــا :

ـــ الشمس حارة هنا ووجهك معي . سأعود اليـــك ببشرة برونزية .

استمرت صامتة . تابع :

ـــ لقد انتظرت ان تأتي ، حاولي أن تحصلي عـــلى اجـــازة .

استمرت صامتة . تابع :

ـــ لقد التقيت رفاقا سابقين ، لقد التقيت وجوها ودعتها منذ زمن .

وكادت أن تصرخ : « فرانك ! لقد مت في داخلي ، فرانك لقد انتهيت البارحة من مأتم الدفن ! » لكنها ترددت امام لهفة صوته .

ـــ تكلمي ! قولي اي شيء ! حدثيني عن نفســـك : ماذا فعلت ؟ هل انت سعيدة ؟

وتكلمت اخـــيرا .

فرانك ... افتقدك ولا اشتاق اليك .

وفرانك يدرك جيداً الفرق بين الشوق والافتقاد . آحست به ينطفىء على الطرف الاخر ... وتمنت لو انها لم تقل ما قالتـــه .

ـــ فرانك . . . لقد ذهبت الى الطبيب النفسي بعد رحيلك فقال لي : انني وطن مجروح يمضي في هذا العالم .. قال لـــي ...

وقاطعهـــا :

ـــ انتظريني .. سأصل غدا ...

وضعت نادية سماعة الهاتف واسرعت ترتدي ثيابها ، فقد تأخرت عن عملها . اسرعت تجـــري باتجاه محطـــة المترو ... مرت بالمقهى في نهاية الشارع حيث اعتادت ان تلتقي فرانك في الامسيات الباردة . تذكرت انه خذلها البارحة واغلق ابوابه . عندما وصلت الى جسر « باسي » حدقت بتثمال جاندارك الذي يستقبل المدينة ورأت وجه السيد نقيا وصافيا . دخلت مكتبها وبدأت بترتيب اوراقها ، كانت قـــد صممت بعد ان تنتهي اليوم من علاقاتها في باريس ... ان تدخـــل الى رئيسها وتخبره بأنها ستـــرحل . ستعود الى « عينتاب » حيث رفاقها . وهناك ستموت أو تخلق ثورتها . كتبت استقالتها على ورقة واستراحت . شعرت للمرة الاولى منذ عرفت الغربة انها وجدت اخيراً مرفأ لهـــا .. مرفأ تستطيع ان تلقي بمراسيها في وجه مياهه . دخلت مكتب رئيسها ، ودون مقدمات ، عرضت عليه استقالتها ... حدق في وجها وبدا انه لم يفهم ما تريد .

ومن غير أن تناقشه ، خرجت مسرعة الى الطريق ... عبرت ساحة « التروكاديرو » ، توقفت قليلا تتأمل التماثيل الكثيرة المحيطة به . انها تمثال هي هذه المرة ... لقـــد كانت ميتة وها هي تنهض الآن .

في المنعطف المؤدي الى شـارع « هنري مارتان » حيث تستلقي بكسل شبيه باللامبالاة اكثر سفارات العالم العربي ؛

لمحت الباهي يقطع الشارع ... لوح لها بيده من بعيد وسألها بصوت مرتفع اذا كانت ما تزال حيـــة ... هزت راسها بالايجاب ، وعبرت رصيف السين من غـــير ان تتوقف . ها هي في ساحة « دوفين » من جديد تحاول استنشـــاق رائحتها . تماما كما يفعل المساجين في لحظات خروجهم من زنزاناتهم ... ان باريس كلها سجون وزنزانات ... عن اي خروج يمكن لنا ان نتحدث ؟ التجأت بهدوء الى جـذع شجرة سنديان عتيقة ... مسحت على جذعها بحنان ... مسحت خدها ببرودة الخشب الحي ... حاولت ان تبعد الاوراق الميتة عن قدميها . وحيدة كقطة ضائعة ... تركض وتلتصق بجذوع الشجر ، من شجرة الى اخرى ... كيف لم تكتشف في الماضي حنان الشجر والجذوع !. تسرع الى مدخل بيته ... تصعد الدرجات القليلة ... تسمع خرير السين ونباح كلبة نجمة السينما المشهورة ... تتذكر وجهها في احد الافلام على عرض الشاشة وهي تقبل عشيقهـــا ثم تطعنه بخنجر حاد مسموم شحذته اياما في صمت وحدتها ... تشم رائحة العفن في كل شيء ، وتتذكر انها راحلة .

كانت ينابيع نسيان وتخدير تجري من جسدها وتغسل الجدران والارض التي شهدت لقاء جسديهما . « لوحـــة سيزر الممزقة » ، صورته في قاعة المحكمة وقد اطرحت على الارض كجثة ، اشياؤه كلها . مكتبته ... تبغه ... خزانة ملابسه ... مخطوطة آخر رواية يكتبها . لا بد وانه سيتحدث عنها في نهاية الرواية . حسنا .. لقد منحته مادة جديدة للكتـــابة .

عجبا ، كيف تفقد الاشياء دلالاتها ؟ الاشياء التي نحب ونعتقد انها حدود عالمنا ؟.

تضع اوراقها التي كتبتها في الليلة الماضية في ظـــرف وتغلقه ثم تلقي به على مكتبه فوق جثة الرواية . عندما تهم بالخروج تستوقفها الساعة التي كانت تقف منذ زمن على السادسة الا عشر دقائق ... الساعة تقف على السادسة الا عشر دقائق منذ عرفته . عادت وحركت الســـــاعة من مكانها . ادارت عقاربها على ساعة اليوم ... ان الزمن لا يتفرج هذه المرة على جنونها !.

في الماضي ، كان الزمن قد تجمد في شراينها ... ام تكن تعرف ان هذا اليوم سيأتي . كانت قد نصبت خياما لبدوية قادمة من الصحراء في ظل عينين زرقاوين ... وعلى حدود جسده ووعيها كانت تقتل ما تبقى لها من عمر .

الشقة صامتة ... لا حشرات تطلق في فضاء رأسها رغبة بالحرب لا بالعيش ، لا وجوه زائرة في الليل ... الشقة تدل على ان صاحبها قد صالح نفسه ... صالح الزمن ... صالح الخيبات كلها .

تهبط السلم مسرعة الى الساحة من جديد ... تمسح وجه صاحب المطعم الجزائري في مدخل العمارة ، تحييه بهزة من رأسها وتسرع الى قصر العدالة ... تتسلق الدرجات القليلة المؤدية الى ابوابه الواسعة ... تتلمس جدرانه ... البناء ما زال مكانه ولا بد انهم سيبحثون طويلا عـــن عدالة تسكنه .

الـــى اين ؟

للمرة الاولى تتساءل الى اين تتجه . مكان الماضـــي

يدفعها غريزيا باتجاه عملها او بيت فرانك او بيتها . لكنهـا الان تتساءل ، تكتشف قدرتها على طرح الاسئلة . الاسئلة التي نسيتها في الماضي .

امام الشماليه المطل على النهر تتوقف دقائق متأملة مياه النهر التي زاد الشتاء من ارتفاعها . وعلى يمينها تبدو كنيسة « نوتردام » صامدة بدهشة كأنها شاهد ابدي على استمرارية الحياة .

لماذا تبدو باريس اوسع مما تعودت ان تراها ؟ لمـاذا يبدو « السان ميشيل » ذا وجه طفولـي ، وغريبا هـذا الصباح ؟

« لم أت بعد » . تسمع صرختها في الاعماق متـوحشة مهذبة ... تشم رائحة المدينة والنهر وتتعرف الى الوجوه التي تمر بها . فكرت ان تهتف لاحد أصدقائها في هذه المدينة وتقول له : انها راحلة الى « عينتاب » ، ولكن ما الفائدة ؟ سيفتقدها الباهي لانه لن يجد من يدفنه ... سيقول « محمد » انهـا كانت مجنونة ممتازة . سيشرب « احمد » نخب رحيلها . وبعد ايام سيغرقون جميعا في اجساد نسائهن وعشيقاتهن ويبقى سريرها وحيداً . تسرع الى اول مكتب سفر وتطلب الـى الموظف حجز مكان لها الى « عينتاب » ، يحدق بها ببلاهة اوروبي يعرف مهنته جيدا :

ـــالا تعرفين يا سيدتي انه ليس من طائرات الى هناك؟

« ليس من طائرات الى هناك » تردد عباردته ودهشة غريبة تطل من عينيها . هل نسيت حقا ان السفر جوا الـى « عينتاب » لم يعد ممكنا منذ اشتعال الحرب ؟ ... ايـن تعيش ؟ هل نسيت حقا ان المذابح تغسل الشوارع والدمـاء تصبغ كل شيء ... اين تعيش ؟ تركت وجه الموظف الحيادي

وانطلقت الى الطريق ... سارت علــى غير هدف وعندما وجدت نفسـها آمـ امهمقهى « كلوني » تخطت الرصيف المقابل ودخلت لتستقر في زاوية من زواياه .

حاولت ان تجمع نفسها . لا بد من ايجاد وسيلة للسفر الى « عينتاب » . لماذا لا ترحل آلى بلد عربي قريب من حدود « عينتاب » ؛ ومن هناك تجد وسيلة ممكنة تنقلها آليها؟ ولكن ماذا لو قبضت عليها سلطات تلك الدولة بتهمة « الوعي » ؟ لا بد وانهم يخافـــون « وعـــي » العائديـــن مثلها . ليكن ! ستسافر ... بدت لها الفكرة معقولة فجمعت اورانها عن الطاولة وخرجت مسرعة باتجاه وكالـــة السفـــر التي كانت فيها منذ ساعة . وقفت امام الموظف الحيادي وطلبت اليـــه ان يحجز لها مكانا الى عاصمة ذلك البلد المجاور ، مـــرت اجراءات الحجز بسرعة وكان عليها ان تغادر باريس في مساء اليوم نفسـه . اخذت بطاقتها من يد الموظف واتجهت الى بيتها على عجل. عند المدخل التقتوجه جارتها آلتي تشغل!الطابق الاول ، حيتها بهزة من راسها وصعدت الى غرفتها . كانت قد صممت على قتل الحشرة والتخلص منها ... ستلقي بها من النافذة ؛ لماذا لا ؟ لا بل ستقتلها ...

عائدة الى رفاقها ... ستبدأ معهم من جديد ، ان البعد عنهم لم يمنحها الراحة ، وهي ما زالت تقاتل لكي تعيش .

عندما فتحت باب الغرفة وجدت الصمت يسيطر علـــى الاشياء كلها ... لا صوت ... لا حشرة ... لا تســـاؤلات على الجدران . اقتربت من الجدار ــ الوطن ونظرت خلـــف المدفأة باحثة بعينيها عن حشرتها ... لم تجدها ، لقد اختفت دون ان تترك عنوانا . ربما سبقتها آلى «عينتاب». ستلتقيان هناك من جديد .

بحثت عن جواز سفرها الحقيقي ولما وجدته تصفحت اوراقه ، ثم ألقت به في حقيبة يدها . نظرت حولها في زوايا الغرفة : ما تزال صورة فرانك على الجدار القريب من سريرها ، ورائحة جسده على ثيابها وجلدها ، لكنها ستغادر هذه المرة الارض التي جمعتهما معا ... الارض التي احتملت ثقل جسديهما وفرحهما ... ستغادر باريس ، ولا بد أن تتذكرها هناك بشيء من الحزن .

(لم يبق لك شيء هنا ، الزوايا معتمة « وعينتاب » جمرة تحترق في صدر الشاطىء ، الرحيل اليها هو العودة الى رحم امك ... الرحيل اليها هو العودة الى ثورتك الاولى التي حلمت بها) .

اغلقت الباب وهبطت السلم الخشبي . كان وقع اقدامها على الخشب العتيق يعيد اليها حزن ليالي الوحدة التي قضتها باحثة عن مثلها وعن فرانك ... عن زواجها واسمها الحقيقي . ودعت شارع « هنري رينيو » نظرت الى البناء العتيق الذي يحمل رقم (٦) وتذكرت انها نسيت ان تقول لانيتا وميراي انها راحلة . ولكن لماذا ؟ ستسأل أنيتا غدا ، وستفتقد ميراي اغلاق باب المدخل في الرابعة صباحا.. ستتحدثان عنها دقائق ، ويموت كل شيء .

الى المطار اتجهت وحيدة .

(ما من احد يودعك هنا ، ولكن رفاقا كثيرين ينتظرونك هناك) .

هبطت الطائرة في مطار اولي ... تلك الطائرة القادمة

من بعيد ، من بـــلاد حارة تصفع وجـــه الصقيع الذي يلف المدينة ...

ها قد عدت الى اوروبا يا فرانك تحمل في راسك تلك الصور التي ما فارقتك يوما ولكنها ابتعدت عنك ولم يعد بالامكان أعادة ترتيبها في مخيلتك . قالوا لك وهم يودعونك في المطـــار : « البلاد بلادك ، لن ننسى أبداً الايام التـــي قضيتها سجينا لأجلنا » .

وكانوا ينسون بالطبع انك قد تغيرت ... ببســـاطة تغيرت وعدت من جديد الى باريسك المتعبة العجوز ، تقفز فوق حبال السياسة وتستنجد بفرنسيتك تلك التي مقتها وهربت منها الى القارة البعيدة . هززت راسك بالايجـــاب ولوحت بيدك « لفاسنتو » رفيقة الايام الصعبة ومضيت . كان صوتها يلاحقك في الايام الاخيرة التي قضيتها هناك ... وجهها المتعب المرهق بليال ما انت الذي صنعتها ، وبهموم لا تدري ما هي . كانت عيناها ترتسمان على مياه الخليج الدافئة فتبدل الوانه وتعيده الى رحـــم الايام الماضية ، ومن بعيد تبدو سفينة صغيرة متواضعة تحمل رجالا جاءوا لكي يبدلوا وجه التاريخ . لاحقتك عيناها .

في الايام الاخيرة ، رايتها في مدخل بيت الضيافة الذي أعد لك ... عند تقاطع شوارع المدينة المؤدي الى قصـــر الدكتاتور السابق ... في الساحة التي شهدت فيما بعـــد انتصار ثورة شاركت من بعيد في صنعها ، وساءك كثيراً ان لا تكون الى جانبك ... عندما هتفت لها لتقول : انك تحبها سمعت الثلج في صوتها فارتعشت دماؤك وانت تحاول ان تستمد من شمس البلاد الاستوائية قليلا من الدفء .

« أفتقدك فرانك ولا اشتاق اليك » .

عندما تفتقد المرأة رجلا فلأنها تعودته ، وعندما تشتاق اليه فلأنها أحبته . ونادته تلك القادمة من الشرق ... تلك الحمامة المهاجرة ، لم تأت الى باريس صدفة ، ولا شدتها الاحجار العتيقة لقصر تويلري ... لقد تساءلت في سرك كثيرا ماذا تفعل امرأة مثلها هنا ... قالت اشياء واشياء . حدثتك عن أبيها ، عن امها ... عن البحر ، عن زوجها ، لكنها ظلت تحفظ في داخلها سرا لم تستطع ان تعرف ابعاده . لا بد وانها تنتظرك هناك عند الحاجز .. لا بد وانها ستكون فرصة لعودتك ... لا بد وان تزرع نفسها في صدرك وتقول لك : « لقد افتقدتك » .. يكفي ان تقول هذا وبعد ذلك فان الايام وحدها كفيلة بتغيير الاشياء .

عبر رصيف المطار متجها الى الحاجز . لفحته ريح باردة ، فحاول أن يعقد ازرار معطفه . وضع حقيبته على الرصيف وشد اليه كنزته الصوفية . ثم اخذ الحقيبة ودخل الممرات المؤدية الى صالة الاستقبال . حدق بوجوه المستقبلين المتجمعين على مدخل الحاجز ... بحث عن راسها بين الرؤوس ... عن الليل الطويل في شعرها ... عن النهار الذي كان يغتسل بعينيها وينسحب ناسيا نفسه . ولكن لا اثر لعالمها .. لا بد وانها قد تأخرت قليلا عن الموعد .. او ربما اخطأت ساعة الوصول . لقد ارسل برقيته منذ يومين ولا بد انها وصلت . تقدم من شرطة المطار وابرز جواز سفره ، وضع الموظف المسؤول الخاتم فوقه وافسح له الطريق ليعبر ... تقدم قليلا وظل يحدق في وجوه المسافرين والمستقبلين والمودعين ... ولكن نادية ليست هنا . انها لم تصل .. لم تصل . شعر بغصة في الحلق ومر به خاطر سريع : هل تكون قد قررت الامتناع عن لقائه ؟ ولكن

لماذا ؟ صحيح انها كانت غريبة وهي ترد عليه بالهاتف يوم اتصل بها ، ولكن ذلك لا يعني انها قد قررت قطع علاقتها به. صعد الى مقهى المطار في الطابق الثاني حيث تعودا الجلوس قبل السفر ، وعند اللقاء ... بحث في الزوايا الاربع . حدق بوجوه الرجال والنساء ، ولكن نادية لم تكن هناك .

هبط السلالم مسرعا وانتظر امام لوحة الاعلانات عن ساعات الرحيل والوصول ... انتظـــر نصف ساعة .. ساعة .. ثم فقد الامل بأن تأتي ، فغادر صالات المطار حيث القى نفسه في اول سيارة اجرة وطلب من السائق الاتجاه الى بيتهـــا .

(قبل سفرك كانت نادية تعيش مأساة لا ترويها ولا تتكلم عنها ، كانت كلما ضجت الاسئلـــة في راسها تطوي ذراعيها الى صدرها وتنتظرك في ساحة دوفين ، على الشاليه الذي يصل قصر العدالة بجسر السان ميشيل . كانت تريد ان تقول لك شيئا ، ولكنها كانت دائما تبدد كل شيء في العتمة وتبقى صامتة) .

تقترب السيارة من مدخل باريس ، يطلب الى السائق ان يأخذ مدخل « دوجنتي » حيث ينعطف باتجاه « بولفار جوردان » . استمر السائق دون ان يبدو عليه سمع توجيهات فرانك ثم التفت اليه متأففا وهو يقول :

ـــ سيدي .. ان الحياة في اوربا لا تطاق ، انظـــر زحمـــة السير في هذه الساعة من النهـــار ! انها تمـــزق الاعصـــاب !

(وتذكرت انك آت من بلاد ما زال الجوع يمزقها ، وتذكرت ايضا ان نادية قد قالت لك ذات يوم : « تبقى في فرنسا ليستهلك العامل قطعتي بفتيك بدلا عن واحدة . ونحن

نقاتل كي نعيش . ان مشاكل اوربا مشاكل اخرى ، الازمة هنا اصبحت مختلفة عنها في البلاد التي اتيت منها . حـــل مشكلة ثمانية ملايين سيارة خاصة في باريس ان شئت) .

توقفت السيارة أمام بيت نادية وهبط فرانك . نقد السائق اجرته وجرى مسرعا الى الطابق الثاني . أمـــام غرفتها التقط انفاسه وقرع الباب لكن ليس من يجيب .. انه يوم السبت ونادية ليست في عملها . انه يعرفها جيدا ، فهي تسكن الجدران الاربعة منذ فترة . أتكون مريضة ؟. قرع بشدة اكثر وانتظر . خرجت جارتها من الغرفة المقابلة ولما عرفته ابتسمت قليلا وقالت له :

ـــ لا تتعب نفسك يا سيد فرانك ، لقد سافرت نادية امس . وقد اوصتنا ان نقوم بتسليم غرفتها الى المالك والمفتاح معي ان شئت . لا شك في انها تركت لك بعض الكتب ، هل ترغب بأخذها ؟

أسند رأسه الى الجدار واستدار عائدا الى الســـلم دون ان يجيبها . هبط الدرجات القليلة ، ولما وجد نفسه في ضوء النهار الذي يغسل الشارع اتجه مسرعا الى محطة تاكسي فطلب من اول سيارة ان تقوده الى بيته .

تسلق درج بيته ، وفي الفسحة المطلة على الســـبن في الطابق الثالث توقف قليلا . هنا تعودت أن تتوقف لتلقي بنظرها الى النهر وتبتسم . هنا كانت ترفع راسهـــا اليه وتحاول ابعاد خصلات شعرها عن وجهها وهي تقول له : « لا أستطيع أن أفهمك . اقول انني عاجزة » .

فتح الباب فاستقبلته رائحة الرطوبة .. رائحة بيت لم تطأه الاقدام منذ رحيله . وقعت عيناه على الصالة بكل شيء فيها : ثيابه على المقاعد ، قميص نومها معـــلق في

الممر ... ثوب الحمام الازرق الذي كانت تضعه عـــلى جسدها ... رائحتها مختلطة برائحة الاشياء كلها ، ومكتبه حيث كانت تقضي ساعات تكتب وتكتب اشياء لم يكن يعرف ما هي . القى بالحقيبة جانبا واتجه الى مكتبه حيث الرسائل التي حملتها الخادمة اثناء غيابه ... تصفح الرســـائل فوقعت عيناه على ظرف كبير مكتوب عليه بخطها . قرا :

« الى فرانـــك . »

فض الخطاب بسرعة فوقعت عيناه على الجملة الاولى.

« اعرف انه زمن الحرب » .

جلس على كرسيه وغرق في الرسالة ... غرق في الكلمات. كان العرق البارد يتصبب من جبينه وعتمة الليل تلف كل شيء . اضاء النور واستمر في القراءة . اشتعلت في راسه الايام الماضية ووجد نفسه من جديد في عوالم التناقض المطلق الذي عاشه فترة السجن . ماذا كانت تريد منه ؟ ولماذا مرت في حياته ؟ الى اي مدى كانت تصارع ايامهـــا وكيف لم يفهم ؟

لقد شك كثيرا ان تكون امراة عادية ... طالبة . هذا ما قالته له وكاد ان يصدق . تصور انها احدى تلك الفتيات اللواتي لا يستطعن الاستمرار في العالم الثـــالث لان حدود وعيهن يتخطى الواقع فيأتين الى اوربا باحثات عن الثقافة والتجـــربة .

والآن رحلت ، وهو ما زال مكبلا بحدود آدميته ... بشروط حياته الجديدة التي يعيشها منذ عاد من القـــارة الاخرى . لم يعد بامكانه ان يقطع الحبال التي تشده الى الواقع . ابدا اسمه هنا ... شهرته ... وطنه ... وفوق

ذلك وجه فلورنس الذي يحب والذي ينتظره ابدا .

آثار الجرح في كتفها ... آثار الرصاصة .

يومذاك ابتسمت وهي تقول له انها آثار عملية جراحية قديمة . وشك في الامر ، لكنه لم يتخيل قط ان تكون هي تلك الفتاة التي لمح وجهها في سجنه على صفحات الصحف التي كانت تصـــله ... تلك التـــي قادت عمليات تحويل الطائرات الثلاث وسقطت سجينة ذات يوم .

كيف استطاعت ان تخفي ذلك عنه ؟.

هل كانت تحاول ان تنسى كما تقول ، وهل نسيت ؟.

« عينتاب » تحترق يا فرانك ، واشعر انها ستبقى حزيرانية وانني هنا تحولت الى قلعة سأم ... الى نسيان . لست ادري الان الى اين يتجه رفاقي وكيف ؟ لكنني اعرف ان المعركة لم تعد بيني وبينهم ... لم تعد المعركة ما نتصور للمستقبل ، فهي قائمة الآن وعلي ان اكون هناك . عـــلى خطأ .. على صواب ... علي ان اكون في الساحة ، لقد كتب علينا آن لا نحيا حياة عادية . اخنرنا وانتهى الامر » .

اعاد قراءة السطور وتنفس بصعوبة ... شعر ان قدميه مكبلتان في الارض ، وذراعيه مشدودتان الى السماء .. ورأسه لم يعد يحتمل .

« خفت ان تحولني الى مادة جديدة لرواياتك .. خفت ان تكتب عنـــي : عاشت هنا وكانت بعيدة عن ســـاحة المعركة . انت ترفض آن تأتي الينا . بلادك بحاجة اليك . هذا ما قلته لي ذات يوم :ابق هنا اما انا فانني اشعر ان بلادي بحاجة لي والسؤال يرعبني : من انا بالنسبة لكم ومن انتم بالنسبة لي » .

(هذه الاسئلة التي لاحقتـــك يا فرانك في بلد كانت

الثورة فيها على الابواب ضرورية كالماء والهواء ... في بلد اصبحت فيه السجون مضافات مفتوحة والـدم يغسل كل الشوارع . اقول لك لم اعد اعتقد ان هناك ثورة شاملة ستمحو كل المظالم .. كل النماذج التي قدمت حتى الآن انتهت الى نماذج مذهلة بدكتاتورياتها . وأنا لا اذهب لابحث عن سعادة الانسان ولكنني أرحل لأدافع عن حياته . انا لا اقاتل لأغير نمط حياته ولكنني أقاتل لاعيد له أرضه) .

وضع الرسالة على المكتب ووقف : اخذ يذرع الغرفة بخطواته وينتظر خلاصا ما .

(لقد كنت بعيدا يا فرانك عن عالمنا ، كنا بحاجة لشهادتك من أجل من ذهب الى الارض المحتلة ولم يعد ، ومنعت عنا شهادتك ... كما اغلقت ابوابك . فرانك ! لا استطيع ان اكون لك ، فأنا اغسل وجهي وآكل وانام واستيقظ واعمل وامارس جسدي بانتظار ان أعود اليه) .

كنت محطة من غير شك ؟

قال هذا لنفسه وهو يتجه الى غرفة النوم ، حيث مزقت نادية على الجدار لوحة « سيزر » وصورته . لقد احرقته حاضرا ... لقد اعدمته حاضرا وعاشت معه ماضيا ... لقد بحثت في جلده عن ثورة تخيلتها ، لكنها لم تجدها . من قال لها ان هناك ثورة ؟.. من قال لها انه رحل باحثا عن الثورة ولم يرحل باحثا عن ذاته ؟.

استلقى على السرير ، وظل يحدق في شعاع النور الذي يخترق الباب الفاصل ما بين المكتب وحجرة النوم . حاول ان يقول شيئا ... حاول ان يصرخ في تلك اللحظة : « نادية ! لست نبيا . انا جبان وضعيف ككل البشر وقد كنت اخاف » .

تحترق اللحظات وضباب الحقيقة يغلف كل شيء . وهو قد اشعل احلامه مرة واحدة في صدر الصمت . تلك المـــراة القادمة من النار ... من الشرق حيـــث احـــرقت مراكبها وجاءت تبحث عن صمتها : لا الصمـــت حالفها ولا صراخها اخترق الجدران .

ظل يحدق الى سقف الغرفة ويتذكر وجهها، يتذكر تلك العينين المشتعلتين بأمل ما ، وذلك الوجه الذي كان يحمل في تعابيره غربة عميقة : يا نادية ، يا غربتنا معا ، من قال لك انني ما زلت ابحث عن الثورة ؟ .

ها هو في زنزانته مرة اخرى ، في ذلك البلد الحار ، في السجن الذي قضى فيه اياما طويلة . يدخل الكاهن اليه قبل لحظات الاعدام وقد حلق شعره والبس ثيابا بيضاء فضفاضة كتب عليها كل الجرائم التي ارتكبها : جرائم عشر .

الاولى : سرقته لسماء ما لكي يجعلها تلتمع في العينين.

الثانية : سرقته للمطر لكي يغسل به القبور .

الثالثة : سرقته للثلج لكي يرسم به نهرا .

الرابعة : سرقته للمسافات لكي يصنع منها بحارا .

الخامسة : سرقته بطون النساء لكـــي يجعـــل الحياة مستمـــرة .

السادسة : سرقته الدم ليلون به المطر .

السابعة : حديثه عن البنادق والرجال الذين يرغبون في الموت وفي الحياة .

الثامنة : عشقه لهذا العالم .

التاسعة : حبه للوريس .

العاشرة :

مكان الجريمة العاشرة ما زال فارغا . لم يفطنوا اذن اليها . قال ذلك لنفسه وهو ينظر الى الكاهن الذي اتشح بشفقة مصطنعة . كاد أن يقول له : لقد نسيتم أن تكتبوا جريمة حبي لامرأة ، النجمة على جبينها ووطنها في عينَيها . تلك القادمة من الشرق ... الباحثة في مقابرنا عن حل لمشاكلها ومشاكل وطنها . صفع الغرب ابوابه في وجهها وابواب بلادها مقفلة . جريمة شوقي لرأسها في تلك اللحظة . الرأس الذي اعادني لايامي الاولى .

وجه الكاهن أمامه اخافه ... كاد ان يضربه على قفاه مازحا ... ان يقول له : لا حاجة بي للاباء ولا للاعترافات. جرائمي على صدري والجريمة التي لم تكتب بعد ستكون من أكثر الاسباب التي تدفع لقتلي .

قال له الراهب : استغفر الله . والتجيء اليه ، لم يبق لك سواه . ستلقاه بعد دقائق ، وعليك ان تقبل موتك بشجاعة . أعترف ماذا فعلت . انني اب لك ... واسطة بينك وبين الرب .

صرخ فرانك في وجهه بحدة : « لا حاجة لي بك . امض عني ! انا لا اعرف الهة ولا اباء . سأقبل الموت ولو خيرت لقاتلت ضده . »

خرج الكاهن من غرفته وعبر الممر المعتم الطويل. مشى، لا صوت للسلاسل التي تكبل يديه ... السلاسل صامتة كأنها تحولت الى دموع شفافة . اقتربت جدران الزنزانة اكثر كادت تطبق عليه . تذكر الفضاء الشاسع المحيط بالمدن الغابية . تذكر شجرات الموز في الخارج وهي تلقي بأيديها الى الغابات المجاورة ... صوت الحيوانات وهي تصرخ

بفرح . حاول ان يقطع سلاسله لكن السلاسل متينة ولا قدرة له على التحرر منها . سمع قرعا خفيفا على باب الزنزانة ... انفتح الباب ولفحته رائحة حشائش برية مضى زمن لم يشمها .

دخلت نادية مكللة بتاج من النار . عيناها بحيرة ليلية والملح ليس ملحا على بحيرات الشرق . شعرها اسود كالليل الذي يتسلل اليه من الكوة في اعلى الجدار ولا نجوم في ليالي السجون . ثيابها بيضاء بيضاء كعروس خارجة من البحر ، جميلة فاتنة .. تنتظر ان يتقدم اليها فيطبع على جبينها قبلة لقاء في منافي بعيدة عن الوطن .

الجريمة العاشرة قادمة اليه في زنزانته ... فرحة ... حزينة . ما الذي جاء بها ؟ في ثياب الزفاف ... ثياب الاتحاد بدمه .. ثياب الرغبة في الخلق بالولادة بالاستمرار . ها هي ... مسحة الحزن لا تفارقها .. كم انت عاصفة ايتها المرأة ؟ حاول ان يقترب منها فاكتشف بقهر ان ساقيه مقيدتان ايضا ، مشدودتان الى الجدار البحري ... حاول ان يفتح ذراعيه لاستقبالها ... حاول ان يصرخ فرحا ... عاصفة ما في الخارج كانت تقتلع المدن... يا ذل آدميتنا! يا خوفنا من اعماقنا الميتة !

ـــ نادية لم اعترف ، لم اقل للكاهن انك الجريمة العاشرة. لقد انتظرتك في الليالي الطويلة بين جدران الزنزانة. وعندما لم تكن يداي مقيدتين رسمت وجهك على الجدران ، على ثيابي ، على الارض ، على المطر ، على الليل القادم من الكوة . لقد اكتشف الحرس وجهك المرسوم وسرقوه لكي يقتلوا الحب بشكل افضل . سرقوه كالحقيقة ليجعلوا منها دخانا . سرقوه كعصافير شتائية ليوقظوا الشجر . لكي يسلوا الليل ... لكي يعيشوا موتهم بشكل افضل .

اوه نادية ! لقد جعلت الموت ينتظر . . . لقد كنت عارية في مصيرك .

حاول ان يقول لها : انه جائع وبحاجة الى صدر امه . بشوق لشجرات ألموت . لكن صوته خانه وارتد أليه . شعر بغصة . . بغضب . . بألم . . برعب . بتمرد . لكن لا شيء يساعده على التعبير عن كل هـذه الموجـات العنيفة التي تسكنه . ونادية ما تزال في مدخل الزنزانة . . والعاصفة في الخارج . الوجه نقي ولا اثار للالم فيـه ، ملـوح بشمس الشرق . .

ـ تكلمي ايتها القادمة الي .

لم تقل شيئا ، لم تحرك راسها . ابتسامة واحدة لا احد يدري فحواها . . . ابتسامة تغسل صقيع الزنزانة وتنطلق اليه فتمسح اثار التعذيـب عن جسده . . تثير لديه الرغبة بالعواء كالذئاب في الغابة البعيدة .

استجمع قوته وصرخ فسمع صدى صوته وفتح عينيه في سريره . استيقظ . . نظر الى سقف الغرفة . . . حوله . . . ها هي شقته في باريس . كتبه هناك في الزاوية تنحب بصمت , الالة الكاتبة صامتة بلهاء . . الراديـو . صـورة ابنته . . ولوحة « سيزر » على آلارض . حرك يديه وقدميه . . . رفعهن في الهواء . . لا سلاسـل . . لا قيـود . . تحسس جسده . وقفت كفه على صدره وبطنه . . لا وشاح ابيض ولا جرائم .

وقف يرمي بأشعة الشمس المتسللة عبر العلية . سمع صوته العميق ، صوت كل الايام البعيدة .

« احقا ترغب في الرحيل مرة اخرى ؟ اربعة اعـوام وانت تنتظر لحظة اعدامك ، كلمـا فتح الباب ظننـت انهم

جاءوا ليقودوك الى الموت . لقد اتـــاك الكاهن ذات يـــوم ليطلب اليك الاعتراف بذنوبك . اردت ان تقول له : انك كنت مخطئا ، لكنك صفعته وادرت وجهك للجدار ، ظللت اياما طويلة دون طعام . لم تكلم احدا ولم تستند للخلف . عينـــاك في الجدار منتظرا لحظة اعدامك .

ثلاثة اعوام قبل السجن وانت تحمل الرسائل من مدينة لاخرى في بقاع القارة والشمس تكوي جلدك وباريس تأتيك عبر الاحلام ، وغرفتك في البيت الواسع تنتظـــر ان تعود ، والاصدقاء يسألون اين انت ؟

وميراي ، الرفيقة التي احببت . كانت تلاقيك علـــى حدود المدن بوجهها الاسمر وجدائلها الطويلة تحمل لك اخر الكتب التي تقيأها مثقفون تافهون في بلادك ليقتلوا عجزهم .

لقد غربت وحيدا ، وعند اعدائك لم يكن لك من صديق الا انت . تحملت كثيرا . وفي الخارج تحرك رفاقه على مدى العالم ليخرجوا ثورا مثلك من زريبته . واخيرا حملك تغيير وجوه بوجوه الى الحرية . مروا بك في عتمة الليل عبر الطرق المظللة بالفقر والجوع ، وفي اول طائرة متجهة الى وطنك الام، القوا بك كبضائع محرمة . عندما وصلت اقدامك ارض فرنسا قلت لنفسك لن افارقها بعد اليوم .

وصلت .. دخلت في عربة الزمـــن والراحة . تزوجت ميراي بجدائلها الطويلة وانجبت طفلـــة . حدقـــت بعينيها الزرقاوين وعشقت السماء فيهما . ها انت تعيش ترفك ايها الثور !... ترتعش اذا سمعت صوت اغلاق نافذة . تنتفض كالطيور الذبيحة اذا ضربت الشمس راسك ، رغم علمك انها تختلف عن الشمس هناك . رفاقك يا غبي ماتوا ، و تفرقوا في هذا العالم ، لقد وجدت نفسك غـــريبا فـــي القارة

البعيدة . لقد صنعوا منك اسطورة كان ضحيتها امثال نادية ورفاقها . اين تهرب من ماضيك ؟ لقد عاهدت نفسك ان لا تكون في مواقع الخطر من جديد .. ان تعيش براحة .. ان تستنشق حرية اوربا .. ان تقرأ شعر اراغون ، ان تكتب روايات وكتبا !

ولكـــن . .

جاءتك مثل الفيمـــة ؛ مثـــل العاصفة قوية وحادة وواضحة .. مزقت صمتك وتخاذلك ونسيانـــك ، وذكرتك ببقع تحترق في هذا العالم . وانت تنعم بسلام اوربا .

خفت ان تقول لها انك انتهيت وانك مشدود الى وجه لوريس ، وساحة الكونكورد وبيتك على الرصيف المحايد من كان صوتها يغسل عنك الريش الباطل الذي كسوت به جلدك السين . خفت ان تقول لها انك لست ذلك الذي تخيلته . واحببتها امراة فرفضتك امرأة ، رفضتـــك رجلا ، تركتك في كسل راحتك وهربت ... مضت كنمرة تبحث عن بقع الدم على جبين بلادها .. لكنها ردتك الى ماضيك .

ان الثورة لا ارض لها .

تذكر ! هذا ما قالته لك وانت تحاول ان تقنعها بموقفك الحالي .

« كل ثائر في هذا الكون مسؤول عن حياة رفاق له في البقاع المتفرقة من العالم » .

نهض فرانك من مقعده واتجه الى الحمام مستنجدا بالمياه الحارة ، علها تخلصه من التفكير ، علها تبعد عن راسه الرغبة المجنونة في العودة الى ارض المعارك المشتعلة . علها تمحو من عينيه صورة نادية وهـــي مستلقيـــة علـــى وجهها واثار

الرصاصة تزين كتفها كوسام . ولكن المياه الحارة لم تزد تلك الصوت والافكار الا اشتعالا في دمه وراسه . وبدت له الاشياء اكثر تعقيدا من قبل . عليه ان يتخذ القرار الذي سيخلصه من تلك الازدواجية التي يعيشها .

ولوريس ؟

تساءل وهو يجفف حبات الماء عن صدره : هل ستعيش يتيمة ؟ . من قال انها ستعيش يتيمة ؟

حدق ببحار « سيزر » ، فرأى اشرعة جديدة تنبت من اطرافمجموعة غاضبة تجتاح محيطا ما فيتلكاللحظة. ارتدى ثيابه مسرعا وهبط السلم الخشبي باتجاه مدينته التي احب والتي تخرج من عينيه بصمتها وحيوانيتها إحيانا .

قطع الساحة متجها الى اليمين حيث رصيف السين والجسر التاسع . « سان جرمان دوبريه » ورصيف « دوزيرفيفر » على الطرفين كنشيد غجر اختاروا الجبال موطنا لهم . مرت رعشة الصباح الباكر على جبينه وطار شعره عبر الرياح الاربع التي تتضارب في قلب مدينة تعيسة وبائسة كباريس . صعد سيارته واتجه الى مقر الحزب الذي ينتمي اليه . ماذا سيقول لهم هذه المرة ؟

« لقد انتهى كل شيء ، قررت الرحيل من جديد » .

وسينظرون اليه بدهشة . ففرنسا على ابواب الانتخابات الجديدة التي يمكن لها ان تحمل اليسار الى الحكم . سيقولون من جديد : انه هرب من مواجهة واقع بلاده ليذهب الى بلاد اخرى . سيقولون : لقد تعود ان لا يحمل وطنا او اسما او هوية .

لقد تعود ان يكون المستشار والغريب . سيقولون...

ولكن ليقولوا ما شاءوا ، فرنسا ليست بحاجة لامثاله ؛ فرنسا ستحقق مكاسبها سواء تسلم الحكم اليمين او اليسار . لقد اعطاها التاريخ فرصتها واتمت ثورتها : وها هي تعيش الآن بانتظار تحقيق رفاهية اكثر .. المؤسسات في فرنسا ستكون اكثر ديمقراطية ، والتغيير الثوري سيأتي نتيجة للتاريخ الطويل لبلد حقق ثورته البرجوازية : اما هناك ، حيث ذهبت نادية ، فالموت على ابواب الايام .. يقرع كل يوم بيده الدامية ليخطف البشر .

عند مقهى « سان كلو » كانت يداه قد تراختا على مقود السيارة . ولم يعد بامكانه الاستمرار . انتحى جانبا شارع « سان جرمان » وأوقف سيارته . نظر الى باريس الصباحية تلك . انها لم تتغير منذ زمن ، منذ تركها راحلا الى بلاد أخرى ... الساعات الاولى من صباح احد ككل الاصباح ، ها هو بائع الصحف في الزاوية حيث كان يشتري جريدته كل يوم ، وما تزال الكنيسة مكانها ، وحتى بائع الصور ...

« كم انت باريس ، هكذا تخيلتك في المنفى ، كانت تقول لي باستمرار انك الخوف ... الخوف من ان تدخلي بشرا مثلنا في دائرة الحياة اليومية العادية ، ثم تقدمي لهم في المساء وجهك الذي يخافه الغريب لانه يمتصه ببطء اشبه بالساعات الاولى من الحياة » .

هبط من سيارته متجها الى مقهى « سان كلو » . عندما اجتاز الباب لفحته حرارة الصالة المليئة بالوجوه التي لا تعبر عن شيء ... انها السأم والعاصفة ... ولكن العاصفة تموت . النسر الذي يفرد جناحيه لاستقبالها ينام

في ذلك الصباح من نهاية الاسبوع عام ١٩٧٧ . عرف وجه الخادم الذي تعود رؤيته كل صباح . الرجل البدين خلف الآلة الحاسبة . العجوز التي ترتاد هذا المكان منذ عشرة اعـــوام .

« وانت كنت تأتي هنا وحيدا ، وهج عينيك لا يستطيع ان يقابل صقيع الاحزاب السياسية . العالم كله ينـــام تحت ذاكرتك ، تحاول أن تجبر الموت على ان يفصل على مقاسك. حيويتك ، تساؤلاتك تسكنك من الفجر الى الآخر . في الساعة الثامنة في غرفة المكتبة من شارع « اولم » ، تأخذ فطورك الصباحي في المقهى المقابل قبل ان تسكنك الاسئلة . فصول الجحيم قبل الرحيل ... فصول الجحيم بعد الرحيل ... فصول الجحيم بعد العودة ... فصول الجحيم في جســد نادية الذي يطبعه العذاب . اغتصاب الجســد في اقبية السجون . وامراة واحدة كانت تعشقك ، وامراة واحدة كانت تهجرك ، هي الثورة التي تبحث عنها في وطنك ولا تجدها . اطمئني يا سيدتي لن اهجرك . كنت تخاف قليلا . وكانت امك تنظر الى عينيك . لكنك كنت بحاجة لان تترجم جسدك واسئلتك ، وكنت واثقا من تلك الحاجة . السقف امام عينيك وظهرك يفترش خشب غرفتك في البيت الواسع . قميصك الازرق يلتصق بجسدك وانت تعاني عذاب وحدتك الفكــرية وغربتك . ويدك تعبث دائما بشعرك وتنطلق من حنجــرتك اصوات الغربة . انتهت اللعبة او بدات ، لا بد انك ستعود من جديد . الســيــد « فــلان » ضـــد الثــورة لان الظروف الموضوعية لم تحن بعد . قفه . هناك تغير في الطرقات من فضلك . الكثير من السهولة يا عزيزي الماركسي الغربي . في هذه القصة او تلك ، عليك ان تتخذ قرارك وحيدا ما من

احد يساعدك على اتخاذه. لا تقصد الاباء. كلهم ذوو بطون منتفخة ويخطئون . وانت اخطأت ايضا . اكتمل الملف . قف . نقطة على السطر . كنت تعتقد ان الثورة لن تكـــون في بلادك . وكنت مقتنعا وهي ما زالت مستحيلة قف . مـــن « اجل » و « ضد » وما هو اكثر وعيا لطفل اشتر فارغ القامة . اقتراب عام ١٩٦٨ يجعلــك تنتظـــر . ايها الثوري الشقي . أيها المطلق من الثورة والمطلق لها . الغرف المرتفعة والمحنية السقوف ، وجه رينيه الملون بافريقيا وهو يشرح لك استحالة استمرارك أيضا هناك . ومرة اخرى ذهبت لابائك الشرعيين ، لحزبك . صعدت الطوابق التسعـــة للجريدة ، واخرجت اوراقك امام صانعي الحقد والعدالة والتاريخ . كان الطريق يبدو لك دون نهاية ، والواقع غير موافق عليه ، كان عليك ان تكســـر آجنحتـــك وتعيد صنعها . وبعد ذلك الغابات والرفيق الذي طعـــن في ليلة حـــارة بـــين الصلاة والنضال. كانت عيناه دون شكتنظران باتجاه سجنك، وكنت تراه فيك . تسميه . تبحث عن وجهه في ظلام وحدتك . تسال حياته . أرض صليبه . اصدقاءه . تلاحق الاودية التي لعبها بجسده ورأسه وروحه ، الاودية الروحية .

ـــ ميراي قولي لي اذا كان حقا قد قتل . . .

خنقت ميراي دموعها من السقوط وهي ترد اليك وجه الماضي في زيارتها الاولى بعد صدور الحكم عليك .

ـــ لقد صلب ، جسده غرز بالاف الابر .

كنت خجلا من الملك الشخصي وحاولت ان تخفيه امام حراسك وجلاديك . في لحظات الوحدة تلك ، وعندما قنعت باستحالة أن يكون الثائر في غير ارضه ، وبشيء من التآمر مع الذات ، باستحالة الثورة أيضا ، نزعت الشراشف البيضاء

عن سريرك، وحاولت ان تصنـع منها حبـلا . اسئلة ... اشارات استفهام .

شعر ضائع لاراغون لم تحدد هوّيته جاءك مع الغروب الذي كان يتسلل اليك من الكوة في اعلى الجدار . هاجمتـك الرغبة في الحياة والرغبة في الموت . الرغبة في الحرية لرجال متفرقين في هذا العالم . وهكذا ضعت بسهولة في غـابات ماضيك، رسمت على الاوراق بقع حنان قليلة لشاب اشقر جاء من بلاد بعيدة .. بقعا مضيئة كشمع في معبد . في الليـل كنت تستيقظ وترى خطواتك عبر زنزانة طولها ثلاثة امتـار وعرضها متران . حاولت ان تكتـب في الصباح الباكر ... حاولـت ان تحـدد لحظـة النـزع الاخـيرة . مـا استطعـت ، وهكـذا وزعتها علـى الماضي والحاضر . كنت تكتب محاولا ان تخترق جدران سجنك ، معتقداً ان النهار آت . ذلك النهار المجهول الذي يدفعك للتساؤل احيانا اذا كان موجودا في افق الزمن .

عندما كان الليل الاسود يمد يده على الاشياء والبشر وحراسك وجلاديك على شجرة فلاريا روزا التي تبدو مـن الكوة حزينة ومدببة الاغصان ، كنت جثة تحيا في تلك الارض ... تلد تتزوج ابناءها . اللون الاسود الغامق المعقود على جبين الاشياء . كنت تتذكر باريس وتغرق في الضوء الـذي ترسله ساحة دوفين الى العالم ... أوه من تلك الصباحات المضيئة . عندما كانوا يمنعونك من اطفاء الضوء واسـدال الستائر والحلم . عندما كانوا يجبرونك على النظر الى المرآة حيث كانت ترتسم قريبا من العينين لرجل في الثلاثين تجاعيد باردة تفتقد الكثير من السرية . وهكذا كنت تضعف وتتساءل اذا كنت حقا ستخرج مرة اخرى . كنت تسترجع دون ان تدري خيباتك وتحاول ان تفهم نفسك بشكل افضل . احيانا

ودون تحفظ كنت تسامح نفسك لانك تكلمت ... الجسد الذي عرف برودة الثلوج في الغرب الاوربي لم يحتمل حقا حـــرارة تعذيبهم ، وقتلت كل شيء وقتل صاحبك نتيجـــة اعترافك . حاولت بعد ذلك ، وعبثا حاولت ، ان تحب نفسك . ابـــدا لا شيء من هذا . حاولت ان تركض وحيـــدا في زنزانتك . باتجاه التوبة والتفتح في طهارتها . نهاية الرعب وضعتك امام الحقيقة . وهذا لم يكن غباء . ركعت على ركبتك ونـــاديت على صاحبك المقتـــول :

ـــ ايها المسيح العميق القلب .. انني انتهيت راكعا لك ولا ادري حقيقة ما قادني الى هنا .

كنت طفلا يعبث بالنجوم ويلحظ بعينيه اغترابها المتحد باغتراب الموت .

ـــ قل ايها الرفيق المنصف ، كيف اطلقوا النار علـــى راســـك ؟.

كان من الصعب عليك ان تتخيل ان ذلك الراس الذي كان يخرجك من حجر الفلسفة العقيمة التي تلقيها في « شارع اولم » ، الراس الذي حاول ان يعيد عدالـــة الاشياء وينظم الغابة ، يسقط من رصاصة ؟

ـــ بماذا فكرت والجلاد يوجه اليك نيرانه ؟ بمن حلمت ؟ وهل تذكرت امراة ما في هذا العالم . الرجل المطلق ، مـــاذا قلت في لحظة ملامستك الارض ؟ كنت تبتسم . هكذا قالت مراي ومن اجلك اشعلوا اغصان الزيتون في العالم ، ولكـــن ما جدوى ذلك ؟

في الليل كانت غربان قادمة من البـــلاد الباردة تسكن قضبان الكوة ، وتنعب علـــى زمنك . صرخت مرة تشكو ، وسقطت في راسك حواجز كثيرة . لتكن الثورة ذلك الشبح ، كنت بشوق لاشجار الدردار على جدران مقابر مهجورة ... بدائية وحمـــراء ملونة بخضرة . لفظـــت جملا كثيرة علـــى

دفترك ، حاولت ان ترسم بها مستقبلك . اي مستقبل لك ايها السجين ؟ النسيان وتعود الالم الجسدي ؟ التآلف المحبب مع التعذيب المزمن المستمر ؟ الالم السري حتى النهاية ؟ كل شيء حولك كان تائبا . تأتيك اشباح في المنفى .. اساتذتك : ماركس ، نيتشه ، هايدغر ، مملكة الظل . وهكذا امضيت سنواتك بعدهم تزرع الكلمات وتحصد زيارات متفرقة لامرأة تأتيك من بعيد في رغبة لاقتلاعك من ذلك العدم . يوم تفقدت ذراعيك وصدرك وعنقك فوجدتها في مكانها كنت سعيدا لانك موجـــود .

انت الذي كان يحاول ان ينتشر بشكل مضيء خلـــف تساؤلاته الماضية . ان ما جعلك تستمر في العيش هو الرغبة في ان تكون ابا طبيعيا وواسطة بين اجدادك وجسدك . قلت هذا لرفاقك بعد ان خرجت من السجن ولم يجدوا في ذلـــك لا خيانة ولا دهشة . كل شيء قد قيل والسجناء قبلك قـــد قالوا كل شيء في هذا الاتجاه . الشفافية ، كوجه صاحبك عندما كنتما في الغابات ، والعادات المضيئة للحـــب الموافق عليه في كل ليلة من حياتكما . كل طلقة كانت خطا مستقيما باتجاه بناء الثورة والعدل الاجتماعي . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ تحولت حياتك الى رغبة دائمة في حماية النفس . واعيا او فاقدا تلك الصحوة ، كان الزمن ينتصر في اختراقه الرغبة . ليس الغد او اليوم هـــو الموعـــد القريـــب لاصطياد الحقد واللاعدالة . بل هو التغلب على العبودية . لكنك كنت تعرف ذلك . ربما كانت القيود الحديدية تنكسر ببطء ، في « الثورة في الثورة» . وانت تدعي انك خلقت عالما جديدا... املا في عالم افضل لا يموت ابدا . لا يبوح فيه سجناء باسرارهم ولا يعترفون باسماء رفاقهم خارج الجدران . تبقى اجســـادهم موشومة بالحب ابدا . وتتحول حياتهم الى عرس .

تنهد بعمق ... اخرج مفكرته اليومية . لماذا لا يكتب نشيد الانشاد الى نادية الغائبة ؟ الى الثورة التي مضت عنه؟. لماذا لا يحاول ان يكون معها الان تحت نيران « عينتاب » . ان باريس ستحاكم باريس ، بانتظار نتائج انتخاباتها . وميشيل سيهاجم فرانسوا ثم يذهبان لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في بيتيهما الريفيين . اوليفيه سيخرج فيلما اخر عن زرقة البحر وخضرة الشجر . وميراي ستحدثه طويلا عن طبيبها النفسي الذي يبحث معها لحظة الوعي واللاوعي . كل شيء يسقط هنا . كل شيء يسقط في العبث والرفاهية ، حتى الانفاق الطويلة والمدفأة جيدا للمترو الذي يخترق باريس ، الضوء وحده منفي في ظلمة قنابل تشتعل بعيدا عن هذه الارض . والرصاص ينطلق باتجاه صدور، وسجناء سياسيون تنزع اظافرهم وتقتلع عيونهم . لماذا لا يعاد للعالم وجه اكثر نقاء ؟.. لماذا لا يغتصب التاريخ ؟

اخذ ورقة بيضاء وكتب :

«انا عاجز عن ان اكون بينكم ، وانني امل ان اخلق يوما اكثر ضوءا على هذه الارض . اترككم احجار جدل وترف في اسرتكم. انتصروا ان شئتم » .

طوى الورقة بهدوء واتجه الى باب المقهى . القى نظرة اخيرة على كل الوجوه التي تلازم هذا المكان منذ زمن . عندما كان يعبر الشارع تذكر ان الساعة تشير الى العاشرة من ذلك اليوم في عام ١٩٧٧ .

الصمت يغرق باريس الصباحية ويمنحها قليلا من الموت. ماذا يفعل في هذه المدينة ؟ هل سيمنحها ولادة جديدة ؟ لقد

اصبحت باريس عقيما بعد ان انجبت كثيرا من الاولاد وهي الان في سن الشيخوخة . هل هي التي قذفت حقا بسعادته الشخصية بعيداً عن ترابها ؟ سيعود اليها بعد ذلك ، ربما عندما يكون شعرها قد ابيض .

صعد سيارته وادار المحرك ثم انتظر دقائق قبل ان يحدد نقطة اتجاهه . في تلك الدقيقة وبدلا من ان ينطلق باتجاه ساحة قصر بوربون ، ادار المقود نصف دورة واخذ اتجاه مطار اورلي .

ركضت باريس الى الخلف ... الصباح يركض ايضا الى الخلف ... على طريق المطار ، حيث القرى الصغيرة المتناثرة ، كان ثمة افق ما ينبت خلف البيوت . افق بلون البحر كان رأس فرانك يستريح على كتفيه ، وعيناه باتجاه واحد : المطار . من هناك سيعبر الى العالم الذي يحترق .

الفضاء من حوله مسكون بالحان ناعمة غير مرئية .

عندما نغني زمن الكرز
مرح الطيور وهزء العندليب
سيكونون جميعا هنا
الروعة في اعينهم والجنون في رؤوسهم
مقاتلون عشاق
الشمس في قلوبهم
عندما نغني زمن الكرز
ستعيش الطيور بشكل افضل

كانت الطائرة تتجه الى « عينتاب » . ووجهه مصلوب

على الغيوم آلتي يعبرها . كيف يجدها هناك ؟ ربما ستكون قد احترقت . عليه ان يحمل صبراً واسعا ورغبة في ان يكون الها . . رغبة تفسر له عدمية الموت . كم كان عاجزا ! كم كان عاجزا امامها ! دونها لا يمكن ان يعيش . انه يرسم الحياة . . يهدمها . . . يبنيها . ان الحب في جسد مناضلة هو التفوق الكلي على آلحرية . هو الحياة الاخيرة في عمق الازرق .

ها هو راحل اليها ، حاملا حق الرغبة المطلقة في ان يهرب اليها ، لان الاتحاد بجسد لا يحمل طلقة رصاص تعبير اخرس ليس الا ريحا . الجسد والثورة يلتحمان ليكونا الواسطة الطبيعية بين الاب والابن وليس اللعبة . .

ليدع اوربا العجوز في حضن اوربا العجوز وساستها . . . لن يحصدوا الا آلبيانات والمؤسسات . يزينون من جديد محطات المترو باعلانات تتحدث عن حليب نستله . وسوتيان (شانتال) ، ومياه (أفيان) . هناك سيكتب رسائل طويلة منها واليها . وسيطلق رصاصات جديدة باتجاه الصمت في مدن المصانع . لتكن ثورته هذه المرة دون نهاية ، لتكن نادية الحرية المطلقة التي يتعلم في جسدها معنى الاخلاص للموت والحياة . . . قبل المشيب . . . وقبل العجز عليك ان تكون الصديق الفارس الذي لا يخون .

« لقد عرفنا ، انت وانا ، الحب ، وليس الافتقاد ، لكننا لم نلتق . تذكري لقاءنا البدائي الذي استحق هذه النهاية الممكنة . تذكري رغبتنا المحترقة في ان نتحول الى شيء اشبه بالشهب » .

كانت الطائرة تقترب من الشرق ، تبدو بيوت اثينا ذات الحرائق الصغيرة كأصوات قادمة من البحر .

« لقد رويت لي تحت المطر ، على الجسر التاسع ، قصة

لقائك الاول بالحب . خفضت صوتك واحمر وجهك » .

تقترب الطائرة من الشرق ، صمت الركاب يهمس بكلمات غير مفهومة ، يتحول الصمت الى ضجيج خفيف ... يبـــدو المتوسط تحت عينيه كاسطورة زرقاء تتصل بالسماء .

رفع يده الى جبينه وصلى بدء المعركة ، تذكر الكلمات الاولى التي تعلمها هناك في البلاد الحارة . ذكـــرى ملتهبة لرفاق قتلوا صعدت من قلبه الى راسه فمزقت الليل الداخلي العميق لوحدته . اذن فالاوطان بعيدة ومتفرقة ، وها هـــو يقترب مـــن وطـــن جديـــد . يسمـــع ضربـــات قلبه في كل الاتجاهات . تلك الضربات التي كان قد تجاهلها طويلا مـــ بين ساحة « دوفين » ومقر الحزب .

هذه المرة : جناحاه لم يعودا جناحين ، انهما العالم .

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٠٩٤٢ - بيروت - لبنان

هذه الروايـــة . . .

هل تستطيع فتاة عربية مثقفة خيّبت الثورة في بلادها أملها ، ان تلتقي بها خارج وطنها ؟

إن « نادية » التي تتخلى عن التنظيم الثوري الذي تلتزم بتنفيذ قراره في خطف الطائرات ، على غير اقتناع منها ، تنفصل عن زوجها في باريس كجزء من عزمها على تحقيق ذاتها في الحرية والثورة ، وتلتقي بمفكر ثوري كبير كانت قد اتخذت من مؤلفاته انجيلاً لها . ولكنها تكتشف ، في اثناء علاقتها العنيفة ، ان هذا « الثوري » ينحرف عن منطلقاته بعد فترة قضاها في السجن . . .

وتفقد نادية توازنها الثقافي والنفسي وتبدأ « الحشرة » في قرض خارطة وطنها على الجدار ، وخارطتها الذاتية . . .

ويبقى « الوطن » في عينيها حنين الحلم للتحقّق وتزرع عودتها الى الوطن – الأصـــل قلقـــاً كبيراً في نفس المفكـــر الثوري الأجنبي . . . فهل « يعود » هو ايضاً ؟

إن هذا العمل الأدبي يعلن بزوغ موهبة جديدة في أفق الرواية العربية الحديثة ، على صعيدي الموضوع والشكل التقني

الناشـ

Bibliotheca Alexandrina
1030240